

العنوان:	شرح القصيدة الميمية
المصدر:	مجلة الحكمة - السعودية
المؤلف الرئيسي:	المزعل، سعد
المجلد/العدد:	ع 4
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1994
الشهر:	أكتوبر
الصفحات:	19 - 76
رقم MD:	142650
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	الشعر الإسلامي، كتاب الرحلة الى بلاد الأشواق شرح القصيدة الميمية، العراقي ، مصطفى، ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر ، ت 751هـ، التراجم، مؤلفات ابن القيم، الدواوين والقوائد، نقد الشعر، شرح الشعر
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/142650

شرح القصيدة الميمية

الشيخ سعد المزعل

هذه هي القصيدة الميمية للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، وهي مطبوعة مع مجموعة قصائد بعنوان: مجموعة القصائد المفيدة ، قمت بوضع شرح يسير مختصر لها ، وذكرت معاني بعض المفردات التي تحتاج إلى بيان .

وبعد الشروع بالعمل وقفت على كتاب بعنوان (الرحلة إلى بلاد الأشواق شرح القصيدة الميمية) ، عرض وتحليل مصطفى عراقي . وقد جاء في هذا الكتاب أبيات زائدة على ما في الكتاب المطبوع الذي اعتمده ، ولكي تكمل الفائدة ويعم النفع رأيت أن أذكر الأبيات الزائدة وأدمجها مع القصيدة .

وأسأل الله العلي القدير أن يوفقني للصواب ، وأن يجنبني الزلل ، وأن يجعل جميع أعمالي خالصة لوجهه ، وأن يتقبلها إنه أكرم من سُئِل .

ترجمة الإمام ابن القيم^(١)

١- اسمه ونسبه:

العلامة شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزُّرعي ، ثم الدمشقي ، الفقيه الحنبلي .

٢- ولادته:

ولد في دمشق سنة إحدى وتسعين وستمائة للهجرة .

٣- كنيته:

اشتهر بلقبه (ابن القيم) أو (ابن قيم الجوزية) ، أو (إمام الجوزية) .

ونسبته إلى الجوزية ترجع إلى أن والده كان قيماً على تلك المدرسة .

والقيّم: الذي يقيم الأمر ويصلحه ويرعاه ويجعله مستقيماً . فأبو الإمام كان يدير شؤون المدرسة التي اسمها الجوزية ؛ فنسب إليها بابن قيم الجوزية .

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية لابن كثير: ٢٤٦/١٤ ، والدرر الكامنة لابن حجر: ٤٠٠/٣ ، وشذرات الذهب لابن رجب الحنبلي: ١٦٨/٦ ، والبدر الطالع للشوكاني: ١٤٣/٢ ، ومعجم المؤلفين لعمر كحالة: ١٠٦/٩ ، وجلاء العينين للألوسي: ص ٤٤ ، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب: ٤٤٧/٤ ، والأعلام للزركلي ٥٦/٦ . وللمزيد انظر: الوافي بالوفيات للصفدي ، وبغية الوعاة للسيوطي ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، وهديّة العارفين للبغدادي ، والزيارات للعدوي ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ، وإيضاح المكنون للبغدادي ، والمجددون في الإسلام للصعدي ، وابن قيم الجوزية لعبد العظيم عبدالسلام ، وفهرس مخطوطات الظاهرية ليوسف العث، وفهرس الخديوي، والتيمورية ، وآداب اللغة ، والمنهج الأحمد ، ومعجم المطبوعات .

المدرسة الجوزية :

يقول الحافظ ابن كثير: إن محي الدين يوسف بن عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، هو الذي ابنتى هذه المدرسة بالنشايين بدمشق وأوقف لها^(١).

أوقف لها يعني: خصص بعض العقارات وغيرها مما يدرّ من الأموال ، لكي يتفّع القائمون عليها ، ولإصلاح شأن المدرسة وتأمين حوائجها .

٤- شيوخه :

نشأ ابن القيم ، رحمه الله تعالى ، في زمن يزخر بالعلماء البارزين . ونشأ كذلك في بيت علم ، فقد كان أبوه من فقهاء الحنابلة المشهورين ، وكان له في الفرائض يدا ، فأخذها عنه .

وسمع على التقي سليمان ، وأبي بكر بن عبدالدائم ، والمطعم ، وابن الشيرازي ، وإسماعيل بن مكتوم .

وقرأ العربية على ابن أبي الفتح ، والمجد التونسي .

وقرأ الفقه على المجد الحراني ، وابن تيمية . وقرأ في الأصول على الصفي الهندي^(٢) . وسمع من الشهاب النابلسي وغيره^(٣) .

ولما عاد الشيخ ابن تيمية من الديار المصرية في سنة ٧١٢ هـ لازمه إلى أن مات الشيخ رحمه الله ، فأخذ عنه علماً جماً^(٤) ، وسمع من فاطمة بنت جوهر^(٥) .

(١) البداية والنهاية: ٣٣/١٣ .

(٢) الدرر الكامنة: ٤٠٠/٣ - ٤٠١ .

(٣) شذرات الذهب: ١٦٨/٦ .

(٤) البداية والنهاية: ٢٤٦/١٤ .

(٥) ذيل طبقات الحنابلة: ٤٤٧/٢ .

٥- علمه :

قال ابن كثير: برع في علوم متعددة لا سيما علم التفسير والحديث ، ولازم ابن تيمية إلى أن مات الشيخ ، فأخذ عنه علماء جمأ - مع ما سلف له من الاشتغال - فصار فريداً في بابه في فنون كثيرة ، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً وكثرة الابتهاال^(١) .

قال ابن رجب: شيخنا الفقيه الأصولي المفسر النحوي العارف ، تفقه في المذهب وبرع وأفتى . وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه وبأصول الدين وإليه فيها المنتهى ، والحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه ؛ لا يلحق في ذلك . وبالفقه وأصوله ، وبالعربية ؛ وله فيها اليد الطولى . وعلم الكلام والنحو وغير ذلك ، وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم ؛ له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى . قال القاضي برهان الدين الزرعي: ما تحت أديم السماء^(٢) أوسع علماً منه .

وقال ابن كثير: وبالجمله كان قليل النظر في مجموعته وأموره وأحواله^(٣) .

قال ابن رجب: ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرفَ بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو المعصوم؛ ولكن لم أرَ في معناه مثله^(٤) .

٦- خلقه :

قال ابن كثير: كان حسن القراءة ، والخلق ، كثير التودد ، لا يحسُدُ أحداً ولا يؤذيه ولا يستعيبه ، ولا يحقد على أحد . وكنت من أصحاب الناس له وأحب الناس إليه^(٥) .

(١) البداية والنهاية: ٢٤٦/١٤ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة: ٤٤٨/٢ - ٤٤٩ .

(٣) البداية والنهاية: ٢٤٦/١٤ .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة: ٤٤٨/٢ .

(٥) البداية والنهاية: ٢٤٦/١٤ .

٧- عبادته :

قال ابن رجب: وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتاله ولهج بالذكر وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلى الله والانكسار له ، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته ؛ لم أشاهد مثله في ذلك . وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن - بالتدبر والتفكير - ففتح عليه من ذلك خير كثير ^(١).

قال ابن كثير: كان كثير الابتهاال ، وذكر كلاماً ، ثم قال: ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه . وكانت له طريقة في الصلاة ؛ يطيلها جداً ويمد ركوعها وسجودها . ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان ، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك ، رحمه الله ^(٢).

قال الحافظ: وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار ، ويقول هذه غدوتي لو لم أقعدها سقطت قواي . وكان يقول: بالصبر والفقر ينال الإمامة في الدين . وكان يقول: لا بد للسالك من همة تسيره وترقيه ، وعلم يبصره ويهديه ^(٣).

وقال ابن رجب: وحج مرات كثيرة ، وجاور بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً يتعجب منه ^(٤).

٨- محنته :

ليس غريباً أن يتعرض ابن القيم ، رحمه الله ، إلى بعض الإهانات من السفهاء أو السجن أو الضرب أو غير ذلك من الابتلاءات ؛ فهذا هو حال كل داعية حق ، وهذا هو سبيل الأنبياء والمصلحين . فأبي إنسان يقوم ليحمل أعباء الدعوة إلى الله سبحانه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٤٤٨/٢ .

(٢) البداية والنهاية: ٢٤٦/١٤ .

(٣) الدرر الكامنة: ٤٠١/٣ .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة: ٤٤٨/٢ .

والوقوف في وجه عادات الناس المخالفة للإسلام ؛ لا بد وأن يضع في حسابه أنه سوف يأتيه ما لا يحب . وهذا ما حدث للإمام ، رحمه الله ، فقد كان يصدع بما يرى أنه الحق ؛ فيُهان أو يسجن . ويفتي بما يرى أنه الحق ؛ فيضرب تارة أو يسجن أخرى .

قال الذهبي في المختصر: وقد حبس مدة لإنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل . قلت (يعني ابن رجب) : وقد امتحن وأوذى مرات ، وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخير بالقلعة ، منفرداً عنه ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ ^(١) .

قال الحافظ: اعتقل مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن اهين وطيف به على جمل مضروباً بالدرة ، فلما مات ابن تيمية أفرج عنه . وامتحن مرة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية ^(٢) .

قال ابن كثير: وقد كان متصدياً للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، وجرت بسببها فصول يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره ^(٣) .

والمقصود بمسألة الطلاق: أن الذي يطلق زوجته ثلاث تطليقات بلفظ واحد ؛ هل يحسب عليه طلقة واحدة أم ثلاث ؟ الذي يذهب إليه ابن تيمية - وكذلك تلميذه ابن القيم - أنها تقع طلقة واحدة ؛ اتباعاً للنص الوارد في هذه المسألة ، وقد سبقهم إليها جمع من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وعمدتهم ما روى مسلم: (١٤٧٢) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة . وانظر مزيداً من البسط في (مجموع الفتاوى) ، وانظر (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين للألوسي): ص ٢٦٨ وما بعدها .

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٤٤٨/٢ .

(٢) البدر الطالع: ٤٠١/٣ .

(٣) البداية والنهاية: ٢٤٦/١٤ - ٢٤٧ .

٩- مؤلفاته :

قال ابن كثير: له من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير ، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً ، واقتنى من الكتب ما لا يتهاى لغيره تحصيل عشره من كتب السلف والخلف^(١) .

قال ابن رجب: وصنف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلم . وكان شديد المحبة للعلم ، وكتابه ، ومطالعه وتصنيفه ، واقتناء الكتب^(٢) .

قال الحافظ ابن حجر: وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف . وهو طويل النفس فيها ، يتعانى الإيضاح جهده ؛ فيسهب جداً . وكان مغرى بجمع الكتب ؛ فحصل منها ما لا يحصر ، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرأ طويلاً ، سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم^(٣) .

١٠- من تصانيفه^(٤) :

- روضة المحيين ونزهة المشتاقين . (مطبوع)
- زاد المعاد في هدي خير العباد . (مطبوع بتحقيق شعيب ارنأووطء في ٥ أجزاء) .
- إعلم الموقعين عن رب العالمين . (مطبوع في ٤ أجزاء) .
- تهذيب سنن أبي داود . (مطبوع مع مختصر الحافظ المنذري وشرح معالم السنن للخطابي) .
- الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية . (مطبوع بتحقيق الدكتور عواد عبدالله المتق) .
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية . (ويسمى الفراسة وقد طبع مرأاً ويقوم الشيخ مشهور حسن بتحقيقه) .

(١) البداية والنهاية: ٢٤٦/١٤ .

(٢) ذيل طبقات الخنابلة: ٤٤٩/٢ .

(٣) الدرر الكامنة: ٤٠٢/٣ .

(٤) ما بين القوسين () اضافة من المجلة اتماماً للفائدة واخترنا من التحقيقات أجودها .

- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل . (مطبوع) .
- كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء . (طبع باسم الكلام على مسألة السماع بتحقيق راشد عبدالعزيز) .
- أحكام أهل الذمة . (مطبوع في مجلدين بتحقيق د. صبحي الصالح رحمه الله) .
- شرح الشروط العمرية . (لا نعلم عنه شيئاً ولعله الذي سبق) .
- تحفة المودود بأحكام المولود . (مطبوع) .
- مفتاح دار السعادة . (مطبوع مراراً وحققه قريباً الشيخ علي حسن الحلبي) .
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة . (طبع المختصر وطبع قطعة منه بتحقيق في أربعة مجلدات) .
- الكافية الشافية . (وتسمى القصيدة النونية طبعت مراراً ولها شروح عدة) .
- مدارج السالكين . (طبع بتحقيق محمد حامد الفقي في ثلاث مجلدات) .
- رسالة في اختيارات تقي الدين ابن تيمية . (هذه لابنه وهي رسالة صغيرة مطبوعة) .
- الفروسية (طبعت مراراً وأجودها ما حققه الشيخ مشهور حسن لسلمان) .
- طب القلوب . (ادعى لويس معلوف أنه في برلين مخطوط على ما نقله الزركلي في الأعلام) .
- الوابل الصيب من الكلم الطيب . (طبع مراراً وبعده تحقيقات) .
- الروح . (مطبوع بتحقيق الدكتور بسام علي سلامة) .
- الفوائد . (مطبوع وأجودها ما طبعت دار النفائس) .
- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراس . (مطبوع بتحقيق عبداللطيف آل محمد الفواغير) .
- إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان . (مطبوع بتحقيق محمد عفيفي) .
- الجواب الكافي . (مطبوع بتحقيق محمد عبدالرزاق الرعود) .

- التبيان في أقسام القرآن . (مطبوع بتحقيق نبيل بن منصور بصارة) .
- طريق الهجرتين أو (طريق السعادتين) أو (سفر الهجرتين وباب السعادتين). (مطبوع بتحقيق عمر محمود) .
- عدة الصابرين . (مطبوع) .
- هداية الخيارى . (مطبوع) .
- تفسير المعوذتين . (هذا جزء من كتاب بدائع الفوائد طبع مستقلاً بعد تحقيقات) .
- التفسير القيم . (هذا ليس تأليفاً وإنما جمع الشيخ ادريس الندوي من تفسير الإمام) .
- بدائع الفوائد . (مطبوع) .
- جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام . (مطبوع بتحقيق شعيب ارناؤوط) .
- رفع اليدين في الصلاة . (يوجد مخطوط في مكتبة السعودية بالرياض مخروم الأول في ١٦١ ورقة) .
- عقد محكم الأحقاء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء . (لعله والوابل الصيب أو كتاب آخر) .
- شرح أسماء الكتاب العزيز . (لا نعلم عنه شيئاً) .
- زاد المسافرين إلى منازل السعداء في هدي خاتم الأنبياء . (لا نعلم عنه شيئاً) .
- بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل . (لا نعلم عنه شيئاً) .
- نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول . (طبع الكتاب بهذا الاسم وباسم المنار المنيف بتحقيق عبدالفتاح أبو غدة) .
- نكاح المحرم . (لا نعلم عنه شيئاً) .
- تفضيل مكة على المدينة . (لا نعلم عنه شيئاً) .

- فضل العلم . (لا نعلم عنه شيئاً) .
 - حكم تارك الصلاة . (طبع باسم الصلاة وحكم تاركها) .
 - نور المؤمن وحياته . (لا نعلم عنه شيئاً) .
 - حكم إغمام هلال رمضان . (لا نعلم عنه شيئاً) .
 - التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير . (لا نعلم عنه شيئاً)
 - إغائة اللهفان في طلاق الغضبان . (طبع بتحقيق العلامة جمال الدين القاسمي رحمه الله) .
 - جوابات عابدي الصلبان وأن ما هم عليه دين الشيطان . (لا نعلم عنه شيئاً) .
 - بطلان الكيمياء من أربعين وجهاً . (لا نعلم عنه شيئاً) .
 - الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه . (لا نعلم عنه شيئاً) .
 - الفتح القدسي والتحفة المكية . (لا نعلم عنه شيئاً) .
 - أمثال القرآن . (طبع كرسالة وهو جزء من كتاب أعلام المؤمنين) .
 - شرح الأسماء الحسنى . (لا نعلم عنه شيئاً) .
 - أقسام القرآن .
 - المسائل الطرابلسية . (لا نعلم عنه شيئاً) .
 - الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم . (لا نعلم عنه شيئاً) .
 - الطاعون . (لا نعلم عنه شيئاً) .
 - الكبائر . (لا نعلم عنه شيئاً) .
- للمؤلف مصنفان آخريين لم يذكرهما الشيخ سعد نذكرهما:
- ١- الرسالة التبوكية مطبوعة .
 - ٢- رسالة إلى أحد إخوانه . (مطبوع عدة مرات) .

الْقَصِيْدَةُ

١ إذا طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ

فِيئَهَا أَمَارَةٌ تَسْلِمِي عَلَيْكُمْ فَسَلِمُوا^(١)

يقول رحمه الله تعالى: في بداية كل يوم ، وفي وقت الصباح ، فيأتي أسلم عليكم ، وعلامة هذا التسليم هو شروق الشمس . فعليكم أنتم أن تردوا عليّ السلام ، لأن وقت شروق الشمس هو وقت تسليمي عليكم .

٢ سَلَامٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ

وَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَقَضْلٌ وَأَنْعَمُ^(٢)

وهذا السلام هو من الله سبحانه عليكم في كل وقت ، ومع هذا السلام: ريح رائحة الريحان . أو يكون معه الراحة من تعب الدنيا ونصبها مع الريحان ورائحته الطيبة . ومع هذا السلام كذلك زيادة فرح ومسرة .

٣ عَلَى الصَّحْبِ وَالْإِخْوَانِ وَالْوَالِدِ وَالْأَلِيِّ

رَعَوْهُمْ بِإِحْسَانٍ فَجَادُوا وَأَنْعَمُوا^(٣)

الصاحب أخص من الأخ ، والأخ أعم . وقد يكون لك أخ ولم تره بعينك . ولكن الصاحب لا بد له من أن يصحبك . يقول المولى جل ذكره: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ الحجرات: ١٠ . وعندما قال النبي ﷺ: (وددت أنا قد رأينا إخواننا) ، قالوا: « أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال: (أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد) رواه مسلم: (٢٤٩) ، والبخاري: (١٣٦) مختصراً .

وقد تعارف أن القائل إذا أطلق لفظ: الصحابة ، فالمقصود بهم صحابة

(١) أمانة: الموعد أو الوقت (القاموس المحيط) .

(٢) رَوْح: نسيم الريح .

(٣) الألي: الذين (المعجم الوسيط) .

جادوا . أجاد: أتى بالجيد . والجواد: السخي (القاموس المحيط) .

رعوهم: أحاطوهم وحفظوهم (لسان العرب) .

رسول الله ﷺ إلا إذا قيدها ؛ كأن يقول أصحابي ، أو أصحابنا ، أو أصحاب فلان .

أما الولد بالكسر: جمع ولد . فهو يذف هذا السلام من الله إلى الجميع: الأصحاب ، والإخوان ، والأولاد ، وإلى الذين أحاطوهم وحفظوهم ، وأحسنوا إليهم وأتوهم بالجيد من القول والفعل وزادوا عليهم من الإنعام .

٤ وَسَائِرِ مَنْ لِّلْسُنَةِ الْمَحْضَةِ اقْتَفَى

وَمَا زَاغَ عَنْهَا فَهُوَ حَقٌّ مُّقَدَّمٌ^(١)

وكذلك سلامه على جميع من تتبع واقتفى بالسنة الخالصة ، وهي طريقة النبي ﷺ وأصحابه ، ومن تبعهم وسار على نهجهم ولم يعدل عنها إلى غيرها ؛ فهذا الصنف من الناس هو المقدم على غيره في كل شيء حتى في إلقاء التحية .

٥ أَوْلِيكَ أَتْبَاعُ النَّبِيِّ وَحِزْبُهُ

وكولاهم ما كان في الأرض مُسَلِّمٌ

الذين ساروا على السنة الخالصة هم أتباع النبي ﷺ في الدنيا ، وهم الذين يحشرون تحت لوائه يوم القيامة ، وهم حزب الله وحزب رسوله ﷺ ، الذين أثبت الله سبحانه لهم الغلبة في الدنيا والفلاح يوم القيامة . فهم الذين أخذوا العلم ، وجدّوا في تعلمه وإتقانه ، وتعلّمه إلى من بعدهم ، فلولاهم ؛ لذهب العلم ودرس ، وضاع الدين ، واختلط الحق بالباطل ، وارتد الناس عن الإسلام .

٦ وَلَوْلَاهُمْ كَادَتْ تَمِيدُ بِأَهْلِهَا

وَلَكِنْ رَوَّاسِيهَا وَأَوْتَادُهَا هُمْ^(٢)

(١) المحضة: الخالصة التي لم يخالطها غيرها
زاغ: مال (مختار الصحاح) .

(٢) كادت: كاد: فعل ناقص يدل على قرب وقوع الخبر (معجم الشوارد النحوية) .
تميد: تتحرك وتضطرب . رواسي: الجبال الثابتة الرواسخ .
أوتادها: الوتد: ما غرّ في الأرض أو الحائط من خشب .

إن هؤلاء الذين تمسكوا بالسنة الخالصة هم الذين بينوا للناس أمور دينهم ، حتى لا يلتبس عليهم الحلال من الحرام ، فتضطرب أمورهم ، ولكن وجودهم بين الناس كالجبال للأرض ؛ فهم يتصدون لكل حادثة ، ويقدمون للناس من الكتاب والسنة ما يصلح لهم معاشهم وحياتهم .

٧ وَلَوْلَاهُمْ كَانَتْ ظِلَامًا بِأَهْلِهَا

وَلَكِنْ هُمْ فِيهَا بُدُورٌ وَأَنْجُمٌ

يشبه أهل العلم المتبعين للسنة بالقمر الذي اكتمل كيف يزيع الظلام الدامس . وهم أيضاً كالنجوم يستدل بهم إلى معرفة أحكام الشرع ، كالذي يسترشد بالنجوم إلى موضعه . فالناس يستتيرون طريقهم ويسترشدون بتوجيهاتهم ونصائحهم .

٨ أَوْلَيْكَ أَصْحَابِي فَحَيَّ هَلَابِهِمْ

وَحَيَّ هَلَا بِالطَّيِّبِينَ وَأَنْعَمٌ^(١)

أولئك الصنف من الناس الذين ذكرهم سابقاً ، وهم أتباع السنة المحضة ، هم أصحابه ، فابداً بهم بالترحيب والسلام ، وعجل بهم ، ثم ابداً وعجل بذكر الطيبين بالفرح والمسرة .

٩ لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ سَلَامٌ يَخْصُهُ

يُؤَلِّغُهُ الْأَدْنَى إِلَيْهِ وَيَنْعَمُ

لكل واحد من هؤلاء السابقين سلام من المصنف ، رحمه الله ، يخرجه بنفسه ، وهذا السلام يبلغه له الأدنى منه ؛ أي إن الذي سمع تسليم المصنف يبلغه إلى الأدنى منه ، والثاني يبلغه إلى الأدنى منه ، وهكذا .

وهذا السلام مصحوب بالترفة والفرح والمسرة

(١) حي هلا: هلم أو أقبل وعجل . حي: بمعنى أعجل ، وهلا: معناه حث واستعجال (معجم الشوارد النحوية) .

١٠ يَا مُحْسِنًا بَلِّغْ سَلَامِي وَقُلْ لَهُمْ

مُحِبُّكُمْ يُدْعُو لَكُمْ وَيُسَلِّمُ

فيا كل من يريد أن يفعل الفعل الجميل والفعل الحسن ، بلغ سلامي إلى أولئك الذين سبقت الإشارة إليهم ، وأخبرهم بأن المصنف من الذين يحبكم في الله ، ويدعو لكم الله سبحانه بالتوفيق والثبات ، ويتمنى لكم كل خير ، وهو يسلم عليكم .

١١ يَا لَائِمِي فِي حُبِّهِمْ وَوَلَائِهِمْ

تَأْمَلْ هَذَاكَ اللَّهُ مَنْ هُوَ الْوَمَّ^(١)

يخاطب من يلومه ويعاتبه وينكر عليه لأنه أحب أتباع السنة (المحضه) ؛ فيقول له: لو تريت قليلاً وتمهلت ثم بحثت عن الحق ، سوف يتبين لك بعد التحري أن الذي يقع عليه اللوم هو أنت لا أنا؛ لأنني اتبعت سنة النبي ﷺ القائل: (المتحابون في الله على منابر من نور) ، رواه أحمد: (٢٣٧/٥)^(٢) .

فهل يلام من يتبع السنة أم الذي يخالفها هو أحق باللوم ؟ وإذا كانت محبة الصالحين والأخيار ذنباً يلام عليه ؛ إذن تكون محبة الأشرار والفجار خيراً يُسعى إليه . وهذا فاسد لا يخفى على أحد .

١٢ بَأَيِّ دَلِيلٍ أَمْ بِأَيِّ حُجَّةٍ

تَرَى حُبَّهُمْ عَاراً عَلَيَّ وَتَنْقُمُ^(٣)

يقول: أنت الذي تنقم عليّ وتكثر في لومي على حب أحبائي ، وتظن أن حبهم ارتكاب معصية .

هل فعلك هذا لك فيه برهان أو نص من قرآن أو سنة ؟

(١) لائمي . اللوم: العذل .

(٢) وإسناده صحيح - المجلة - .

(٣) تنقم . نقم عليه: عتب عليه . انتقم الله منه: عاقبه (مختار الصحاح) .

١٣ وَمَا الْعَارُ إِلَّا بُغْضُهُمْ وَاجْتِنَابُهُمْ

وَحُبُّ عِدَائِهِمْ ذَلِكَ عَارٌ وَمَأْتِمٌ^(١)

العيب كل العيب هو مقتهم واجتنابهم ، وتركهم وحب غيرهم ممن ناصبهم العداة ؛ لا لشيء إلا لأنهم تمسكوا بدين الله ، فحب غيرهم هو العار والوقوع في الإثم .

١٤ أَمَا وَالَّذِي شَقَّ الْقُلُوبَ

وَأَوْدَعَ الْمَحَبَّةَ فِيهَا حَيْثُ لَا تَنْصَرِمُ^(٢)

يقسم بالخالق سبحانه الذي فطر القلوب على المحبة ، حيث أودع هذه الغريزة داخل القلوب الضعيفة ، ثم جعلها قادرة على التحمل وعدم التقطع .

١٥ وَحَمَلَهَا قَلْبَ الْمُحِبِّ وَإِنَّهُ

لِيَضْعُفُ عَنِ حِمْلِ الْقَمِيصِ وَيَأْلُمُ

١٦ وَذَلَّلَهَا حَتَّى اسْتَكَانَتْ لَصَوْلَةٍ

الْمَحَبَّةِ لَا تَلْوِي وَلَا تَتَلَعَّمُ^(٣)

جعل الله سبحانه المحبة في قلب المحب ، وجعله قادراً على حملها مع ثقلها ، بينما هو يستقل حمل القميص أو الرداء الذي عليه ولا يقوى على حمله ويستقل منه .

ومع هذا فهي خاضعة ذليلة قادرة على تحمل تطاول المحبة ، فلم تتردد ولم تباطئ في الاستجابة لندائها .

(١) عداهم: عدا: جمع أعداء .

(٢) تنصرم: نصرم: تجلد وتقطع .

(٣) وذللها . ذل: من اللين وهو ضد الصعوبة . تذلل: خضع .

استكان: خضع (نهاية)

لصولة . صال: استطال أو وثب . تلوى . لوى عن الأمر: تناقل .

تلعلم: تمكث وتوقف وتأنى (القاموس المحيط) .

١٧ وَذَلَّلَ فِيهَا أَنْفُساً دُونَ ذُلِّهَا

حِيَاضُ الْمَنَايَا فَوْقَهَا وَهِيَ حَوْمٌ^(١)

وجعل سبحانه وتعالى النفوس التي تحمل هذه القلوب ذليلة خاضعة أكثر من خضوعها المعتاد ، لأن النفوس التي تحمل القلوب المجروحة التي أصابتها سهام المحبة تكون دائماً مستكينة ليس لها هم إلا لقاء المحبوب . والموت فوقها وهي تدور تحته .

١٨ لِأَنْتُمْ عَلَى قُرْبِ الدِّيَارِ وَبُعْدَهَا

أَحْبَبْنَا إِنْ غَبْتُمْ أَوْ حَضَرْتُمْ

الذي يكون ذكره في القلب ومحبه في الفؤاد فهذا هو الحبيب الذي يُذكر دائماً ولا يُنسى ، سواء أكان قريب المنزل أم لم يكن ، وسواء أكان حاضراً أم غائباً فإن طيفه لا يكاد يفارق الخيال .

١٩ سَلُوا نَسَمَاتِ الرِّيحِ كَمْ قَدْ تَحَمَّلْتُ

مَحَبَّةً صَبَّ شَوْقُهُ لَيْسَ يُكْتَمُ^(٢)

٢٠ وَشَاهِدُ هَذَا أَنَّهَا فِي هُبُوبِهَا

تَكَادُ تَبُثُّ الْوَجْدَ لَوْ تَتَكَلَّمُ^(٣)

يعبر ، رحمه الله تعالى ، عن شدة حبه ، ويريد أن يبرهن على صدق ادّعائه فيقول: سلوا نسيمات الريح . أي كأن الهواء الذي يمر عليكم مشبع بالحب الذي يكنه قلبي . حبّ عاشق، أو تكتب حبّه وشوقه ظاهر يشعر به الجميع، ولا يكتف عن أحد. وعلاقة ذلك أن الريح التي تمرّ بكم تحمل معها شدة حبي وعظيم شوقي، فهي تريد أن تنشر هذا لكم، إلا أنها لا تتكلم .

(١) حياض المنايا . حياض: جمع حوض . المنايا: جمع منية وهي الموت .

(٢) صب . الصباية: الشوق ، أو رفته ، أو رقة الهوى .

شوقه . الشوق: نزاع النفس ، وحركة الهوى .

(٣) تبث: تظهر وتشر .

الوجد: الهوى والحب الشديد (تاج العروس)

٢١ وَكُنْتُ إِذَا مَا اشْتَدَّ بِي الشَّوْقُ والجوى

وَكَادَتْ عُرَى الصَّبْرِ الجميل تَقْصَمُ^(١)

٢٢ أَعْلَلُ نَفْسِي بِالتَّلَاقِي وَفُرْبِهِ

وَأَوْهَمُهَا لِكِنَّهَا تَتَوَهَّمُ^(٢)

٢٣ وَأَتَّبِعُ طَرْفِي وَجِهَةَ أَنْتُمْ بِهَا

فَلِي بِحَمَاهَا مَرْبِعٌ وَمُخِيمٌ^(٣)

وكنت إذا اشتد بي ألم الهوى وشدة نزاع النفس إلى رؤياكم ، وأصابني الحزن العميق على فراقكم ، وأوشك أن تنقطع وتتكسر مقابض الصبر التي أتشبت بها ؛ فإذا أصابني هذا الشعور (أعلل نفسي بالتلاقي) .

وبعد أن يستحكم بي الشوق وألم الفراق فإنني أشاغل نفسي وأحدثها بأن وقت اللقاء قد قرب ، وأنا أعلم أنه وهمٌ لا حقيقة له ، ولكنني أجلب هذا الظن لنفسي لكي تستقر وتسكن ، وأجعل عيني دائماً في ترقب إلى الجهة التي تسكنونها ، وقلبي متوجه إليكم لعلني أفوز منكم بنظرة ؛ لأن نفسي دائماً تحدثني بقدمكم كلما غفلت ، فتراني دائم التطلع إلى جهتكم لأن لي بها دياراً ومنازل .

٢٤ وَأَذْكَرُ بَيْتاً قَالَهُ بَعْضُ مَنْ خَلَا

وَقَدْ ضَلَّ عَنْهُ صَبْرُهُ فَهُوَ مُفْرَمٌ^(٤)

(١) الجوى: هوى باطن ، أو الحزن ، أو شدة الوجد (القاموس المحيط) .
عري: جمع عروة . والعروة من الدلو والكوز: المقبض . تقصم: تتكسر .

(٢) أعلل: أشاغل . وأوهمها: الوهم: من خطرات القلب . تتوهم: تظن .

(٣) طرفي: الطرف: العين ، أو البصر (القاموس المحيط) .
حماها: حمى: المكان الذي لا يُقرب . مربع: منزل القوم في الربيع خاصة . الربيع: الدار بعينها حيث كانت . مخيم: خيم بالمكان: أقام به . تخيم: ضرب خيمة .

(٤) خلا: مضى . ضل: الضلال ضد الهدى ، يعني ضاع عنه صبره ولم يهتد إليه .
مفرم: أسير الحب ، أو المولع بالشيء .

٢٥ أسائلُ عنكمُ كلَّ غادٍ ورائح

وأومى إلى أوطانكم وأسلم^(١)

بعد أن يتجه إلى الجهة التي هم فيها بقلبه قبل بصره ، فإن هذا لا يخفف من لوعته ولا يسكن شيئاً من آلامه ، فيتذكر ذلك البيت الذي قاله أحد الشعراء القدماء عندما اشتد عليه شوقه وضاع منه صبره فقال : « أسائل عنكم . . . » أي بعد أن انقطعت أسباب الوصال ، ولا أمل في التلاقي ، فإنني أسأل عنكم الذاهب والقادم ، وأتقصى أخباركم ، وأحرك رأسي إيماءً إلى جهتكم ، ومع هذه الحركة ألقى عليكم السلام .

٢٦ وكم يصبر المشتاقُ عمَّن يُحبهُ

وفي قلبه نارُ الأسى تتضرم^(٢)

إن المحب الذي حرق الشوق قلبه ، وآلم الفراق يعصر فؤاده ، فإنه يصير على فراق محبوبه صبراً مرغماً عليه ؛ فهو صابر ، ولكن نار الحزن مشتعلة في قلبه ولا تكاد تهدأ .

٢٧ أما والذي حجَّ المحبونُ بيتهُ

ولبوا له عند المهلِّ وأحرموا^(٣)

يقسم بالله سبحانه ، الذي جاءه الناس من كل فج عميق ، قاصدين ذلك المكان الذي اختاره ليجعل فيه بيته الحرام ، الذي جعله قبلة للناس ، فهم يتوجهون إليه بقلوبهم ووجوههم . وقد فرض الله سبحانه الحج على الناس في العمر مرة واحدة للمستطيع ، ثم جعل التكرار سنة ، ورغب فيه ، كما روى الترمذي وغيره من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي

(١) غاد: الغدو: السير أول النهار . رائح: الرواح: السير آخر النهار .

(٢) الأسى: الحزن . تتضرم: تشتعل .

(٣) لبوا: تلفظوا بالتلبية ، وهي صيغة حددها الشرع ، وستاتي .

المهل: المكان الذي يهل فيه الحاج أو المعتمر .

أحرموا: دخلوا في الإحرام ، وهو التقيد بأمور حددها الشرع .

ﷺ أنه قال: (تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب)^(١).

يقول: (ولبوا له...) أي إنهم عندما وصلوا إلى الميقات ، وهو المكان الذي لا يتجاوزه أي إنسان يريد الحج أو العمرة إلا وهو قد لبس لباس الإحرام. فعند وصولهم ذلك المكان رفعوا أصواتهم مهلين له سبحانه وتعالى.

٢٨ وَقَدْ كَشَفُوا تِلْكَ الرُّؤُوسَ تَوَاضِعًا

لِعِزَّةٍ مِّنْ تَعَنُّوْا الْوُجُوْهَ وَتُسَلِّمُ^(٢)

بعد أن يصل الحاج أو المعتمر إلى الميقات يستحب له أن يغتسل ويتنظف، وإذا احتاج إلى تقليم الأظافر أو حلق الشعر فعل ذلك ، ثم يصرح شعره ويتطيب ، ثم يتجرد من الملابس المخيطة ويلبس رداء وإزاراً . أما النساء فيحرمن في ملابسهن .

ذكر المصنف أنهم كشفوا رؤوسهم تواضعاً لعظمة الله الذي تخضع الوجوه له وتذلُّ وتُسَلِّمُ .

وهذا من باب ذكر الحكمة من ورود الحكم ، وهو أمر جيد أن يعرف الإنسان بعض الحكم من ورود الأحكام ، ولكن الأصل أن يأخذ الإنسان الحكم على أنه حكمٌ حكّم الله به وقدره ، ثم بعد ذلك يستنبط بعض الحكم إن استطاع ، لا أن يُعلق الحكم على معرفة الحكمة .

٢٩ يُهْلَوْنَ بِالْبَيْدَاءِ لِبَيْتِكَ رَبَّنَا

لَكَ الْمُلْكُ وَالْحَمْدُ الَّذِي أَنْتَ تَعْلَمُ^(٣)

(١) رواه أحمد: ٣٨٧/١ ، والترمذي: ٨١٠ ، والنسائي: ١١٥/٥ ، وابن خزيمة: ٢٥١٢ . [ابن ماجه ٢٢٨٧ والحديث صحيح ، السلسلة الصحيحة ١٢٠٠ ، - المجلة]

(٢) تعنو: قال الحق سبحانه ﴿ وَعنت الوجوه للحق القيوم ﴾ قال الفراء: عنت الوجوه: نصبت له وعملت له ، (لسان العرب) .

قال ابن الأثير في النهاية عن حديث (إنه دخل مكة عنوة) : وهو من (عنا يعنو) إذا ذل وخضع .

(٣) يهلون: أهل الملبى: رفع صوته بالتلبية .

البيداء: الصحراء .

لييك: أي أنا مقيم على طاعتك إلباباً بعد إلباب وإجابة بعد إجابة (القاموس) .

بعد أن تجاوزوا الأماكن التي أحرموا من عندها وساروا في تلك الصحراء ، فإن أصواتهم لا تفتت عن الذكر الذي سنه لهم رسول الله ﷺ ؛ ألا وهو رفع الصوت بالتلبية وهي: لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . فهم يلهجون بهذا الذكر ولا تفتت ألسنتهم عنه .

٣٠ دَعَاهُمْ فَلَبَّوْهُ رِضًا وَمَحَبَّةً

فَلَمَّا دَعَوْهُ كَانَ أَقْرَبَ مِنْهُمْ^(١)

دعا ربنا سبحانه وتعالى عباده لزيارة بيته الحرام ، حيث يقول مخاطباً الخليل ، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً ﴾^(٢) ، ويقول سبحانه: ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾^(٣) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: (أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا)^(٤) .

هذه دعوة من الله سبحانه وتعالى لعباده كي يزوروا بيته ، فتقاعس من خذله الله ، وانبرى لاستجابة هذه الدعوة من وفقه الله لطاعته . استجابوا له وقلوبهم يعصرها الشوق الذي تولد من الحب والرضا ؛ فهم راضون عنه ، ويسألونه أن يرضى عنهم ؛ فلما سألوه وألحوا عليه بالمسألة والإكثار من ذكره وتمجيده وتحميده ، كانت استجابته لهم أسرع من استجابتهم له .

٣١ تَرَاهُمْ عَلَى الْأَنْضَاءِ شُعْتًا رُؤُسُهُمْ

وَعُجْرًا وَهُمْ فِيهَا أَسْرٌ وَأَنْعَمٌ^(٥)

(١) لبّوه: أجابوا الدعوة .

(٢) سورة الحج: ٢٧ .

(٣) سورة آل عمران: ٩٧ .

(٤) رواه مسلم: ١٣٣٧ .

(٥) الأنضاء: جمع نضو ونضوة وهو المهزول من الإبل (القاموس) .

شعنا: الأشعث: المغبر الرأس وكذلك اللبد الشعر .

عجرا: ترى عليهم العجبار .

تراهم قد ركبوا تلك الدواب التي أهزلتها الأسفار ، وأذهبت لحمها ، وهم عليها في الصحراء المترامية الأطراف ، وقد غبّر التراب وجوههم ، وأشعث رؤوسهم المكشوفة . ومع ما فيه من ضنك العيش وشدته ؛ إلا أنهم في غاية الفرح والسرور ، وكأنهم في رغد العيش ونعيمه ؛ لأنهم يأملون من مولاهم سبحانه أن يجازيهم على ما لاقوه من نصب في سبيله ؛ بأن يمنحهم رضوانه وأن يدخلهم جنته .

٣٢ وَقَدْ فَارَقُوا الْأَوْطَانَ وَالْأَهْلَ رَغْبَةً

وَلَمْ يُنْهِنِهِمْ لَذَاتُهُمْ وَالْتَنُّعُ^(١)

٣٣ يَسِيرُونَ مِنْ أَقْطَارِهَا وَفَجَاجِهَا

رَجَالًا وَرُكْبَانًا وَاللَّهُ أَسْلَمُوا^(٢)

لقد تركوا الأهل وتحملوا ألم فراقهم ، وتغربوا عن الأوطان وتحملوا ألم الحنين إليها . تركوا كل هذا رغبة بما عند الله سبحانه من النعيم المقيم ، وتحملوا مشقة السفر وما به من مخاطر وعذاب ، وآثروه على اللذات والنعيم والعيش الرغيد بين الأهل والإخوان ، ولم يمنعهم هذا من تحمل تلك المخاطر .

فجاءوا ملينين لدعوة الخالق سبحانه من جميع بقاع الأرض ؛ منهم المشي على رجليه ، ومنهم الراكب على راحلته ، والجميع قد أسلم وجهه وقلبه إلى المولى جل في علاه .

٣٤ وَلَمَّا رَأَتْ أَبْصَارُهُمْ بَيْتَهُ الَّذِي

قُلُوبُ الْوَرَى شَوْقًا إِلَيْهِ تَضَرَّمُ^(٣)

(١) رغبة: رغب فيه رغبة: أراه . لم ينههم: لم يكفهم ولم يصرفهم .

(٢) أقطارها: القطر: الناحية والجانب ، وجمعه: أقطار .

فجاجها: الفج: الطريق الواسع بين الجبلين ، والجمع فجاج .

رجالاً: الراجل: ضد الفارس ، أي الذي يمشي على رجليه .

ركباناً: الذين يركبون الدواب وغيرها .

(٣) الورى: الخلق . تضرم: تشتعل .

٣٥ كَانَتْهُمْ لَمْ يَنْصُبُوا قَطُّ قَبْلَهُ

لأن شقاهم قد ترحل عنهم^(١)

ولما وصلوا إلى البيت الحرام ، وتمتعوا بأبصارهم برؤيته ؛ هذا البيت الذي طالما اشتاقت إليه قلوب العباد ، واحترقت من شدة الوجد لرؤيته .

وبعد الوصول والتمتع بالرؤية اطمأنت القلوب ، واستقرت الأفئدة ، واستراح الأبدان ، وذهب الألم ؛ وكان جميع ما لاقوه من وعشاء السفر وشدته ونصبه ومشقته قد ذهب كله عنهم ؛ لأن السعادة التي غمرتهم قد أنستهم ذلك كله .

٣٦ فَللهِ كَمِ مِنْ عِبْرَةٍ مُهْرَاقَةٍ

وأخرى على آثارها لا تقادم^(٢)

٣٧ وَقَدْ شَرَقَتْ عَيْنُ الْمُحِبِّ بِدَمْعِهَا

فَيَنْظُرُ مِنْ بَيْنِ الدَّمُوعِ وَيُسْجِمُ^(٣)

يتعجب من كثرة ما تذرفه العيون من الدموع السائلة على الخدود ، وكلما خرجت دمعة تبعها أخرى بعدها ، مباشرة ودون انقطاع ، وقد امتلأت عيونهم بالدموع ، فأصبحوا لا يستطيعون مشاهدة البيت بوضوح ، وإنما أصبح الدمع حاجزاً بين عيونهم وبين البيت؛ فهم ينظرون إليه من خلف الدموع التي قد ملأت العيون، ومع هذا فإن العيون مستمرة في ذرف المزيد من الدموع .

(١) ينصب: يتعب . ترحل: ذهب .

(٢) عبرة: الدمعة قبل أن تفيض ، أو تردد البكاء في الصدر .
مهراقة: أهراقه يهريقه فهو مهريق ومهراق: يعني صبه (القاموس) .
على آثارها: تأتي بعدها ، كأنها تمشي على أثرها .

(٣) شرقت: امتلأت حتى غصت ، لأن الشروق: الغصة ، والغصة: ما اعترض في الحلق فأشرق .
يسجم: يسيل .

٣٨ إذا عَايَنَتْهُ الْعَيْنُ زَالَ ظَلَامُهَا

وَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْكَثِيبُ التَّالِمُ^(١)

إن بيت الله الحرام ، جعل الله فيه خاصيةً جذب القلوب إليه ، فهو يأسرُ قلوب المحيين .

وكذلك لا تمل الأبصار من النظر إليه ، فإذا أمعن فيه الناظر زال الظلام عن عينيه ، وكذلك ينشرح صدره، ويطمئن قلبه ، ويزول عنه همه وغمه .

٣٩ وَلَا يَعْرِفُ الطَّرْفُ الْمُعَايِنُ حُسْنَهُ

إِلَى أَنْ يَعُودَ الطَّرْفُ وَالشَّوْقُ أَعْظَمُ^(٢)

٤٠ وَلَا عَجَبٌ مَنْ ذَا فَحِينَ أَضَافَهُ

إِلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَنُ فَهُوَ الْمُعْظَمُ

إذا أبصر الإنسان الناظر إلى البيت مهابته وشرفه وحسنه وجماله فإنه يتعلق به ، بحيث إذا صرف بصره عنه فإنه يعود لينظر إليه مرة أخرى ؛ لما يصيبه من الشوق إليه ولا يستطيع أن يصبر على عدم النظر إليه .

وليس في هذا عجب ، ولا هو بالأمر الغريب ؛ وذلك لأن الله سبحانه هو الذي شرفه وأضافه إلى نفسه العلية ؛ حيث قال: ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي ﴾^(٣) .

وقال سبحانه: ﴿ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي ﴾^(٤) ؛ فيقال: بيت الله .

٤١ كَسَاهُ مِنَ الْإِجْلَالِ أَعْظَمَ حُلَّةٍ

عَلَيْهَا طِرَازٌ بِالْمُلَاحَةِ مَعْلَمٌ^(٥)

(١) الكتيب: الحزين .

(٢) يعرف: يصبر: (لسان العرب) . الطرف: العين .

(٣) سورة الحج: ٢٦ .

(٤) سورة البقرة: ١٢٥ .

(٥) الإجلال: التعظيم . حلة: إزار ورداء ، ولا تكون إلا من ثوبين .

الطراز: الهيئة . الملاحه: ملح الشيء فهو مליح أي حسن .

معلم: ما يستدل به . وقد تكون: معلم: هو الذي يخبر بذلك .

٤٢ فَمِنْ أَجْلِ ذَا كُلِّ الْقُلُوبِ تُحِبُّهُ

وَتَخْضَعُ إِجْلَالاً لَهُ وَتُعْظَمُ

إن الله سبحانه وتعالى ألبس هذا البيت لباس تعظيم وإكرام ، ومزجه بحسن لا نظير له ، وجعل هذا علامة له ؛ فلأجل هذا إن العيون إذا رآته انخلعت القلوب شوقاً له وانقياداً إليه وتعظيماً ، ولا تصبر على فراقه .

٤٣ وَرَاحُوا إِلَى التَّعْرِيفِ يَرْجُونَ رَحْمَةً

وَمَنْفِرَةً مِمَّنْ يَجُودُ وَيُكْرِمُ^(١)

بعد ما وصف لنا حال المحيين حينما وصلوا إلى البيت الذي طالما متوا أنفسهم بمشاهدته والصلاة فيه . وها هو يصف لنا ذهابهم إلى عرفات حيث الاجتماع الكبير ، وسؤال الجواد الكريم أن يمن عليهم بالرحمة والمغفرة .

٤٤ فَلِلَّهِ ذَاكَ الْمَوْقِفُ الْأَعْظَمُ الَّذِي

كَمَوْقِفِ يَوْمِ الْعَرْضِ بَلْ ذَاكَ الْأَعْظَمُ^(٢)

تعجب من ذلك الموقف العظيم الذي يضم الناس من جميع أشكالهم وأجناسهم ، وهو في بعض جوانبه قد يشبه يوم القيامة ، إذ إن الناس على اختلاف مراتبهم في الدنيا قد اجتمعوا في مكان واحد ، وفي زمن واحد ، وكذلك لباسهم واحد ، ولا يستطيع الناظر أن يميز بين الغني والفقير ، ولا بين الشريف والوضيع ، ولا شك في أنه يشبهه في بعض الجوانب لا في جميعها ، حيث إن يوم القيامة أعظم وأعظم .

٤٥ وَيَدْتُو بِهِ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ

يُبَاهِي بِهِمْ أَمْلَاكُهُ فَهُوَ أَكْرَمُ^(٣)

(١) التعريف: عرفات ، وهو موقف الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة .
يجود: جاد وأجاد: أتى بالجيّد فهو مجواد .

(٢) يوم العرض: يوم القيامة .

(٣) يدنو: ينزل ويقرب ، مع أنه قريب بعلمه في كل مكان وزمان .
يباهي: يفاخر .

٤٦ يَقُولُ عِبَادِي قَدْ أَتَوْنِي مَحَبَّةً

وَأَنِّي بِهِمْ بَرٌّ أَجُودُ وَأَرْحَمُ

٤٧ فَأَشْهِدُكُمْ أَنِّي غَفَرْتُ ذُنُوبَهُمْ

وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا أَمَلَوْهُ وَأَنْعَمُ^(١)

يشير إلى حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كان

يوم عرفة فإن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة فيقول:

أشهدكم أنني قد غفرت لهم . . . الحديث)^(٢) .

والحديث في سننه مقال ، وانظر ابن حبان: ٣٨٥٣ ، والسلسلة

الضعيفة للألباني: ٦٧٩ ؛ ويشهد لبعض فقراته الحديث المتقدم تحت البيت

رقم: ٤٥^(٣) .

والحديث يشير إلى أن الله سبحانه يشهد الملائكة على أنه غفر ذنوب جميع

أهل الموقف ، وأعطاهم جميع ما كانوا يطلبون ويرجون ويتمنون ، وزادهم

زيادة من فضله على طلباتهم .

٤٨ فَبُشْرَاكُمْ يَا أَهْلَ ذَا الْمَوْقِفِ الَّذِي

بِهِ يَغْفِرُ اللَّهُ الذُّنُوبَ وَيَرْحَمُ

المصنف ، رحمه الله تعالى ، يَزِفَ الْبَشْرَى الْعَظِيمَةَ الْحَارَةَ إِلَى أَهْلِ

الموقف في عرفات ، بأن الله تعالى غفر ذنوبهم وأدخلهم في واسع رحمته .

(١) أمَلَوْهُ: الأمل: الرجاء ، يعني ما كانوا يرجونه ويتطلعون إليه .

أَنْعَمُ: فعل كذا ، وأنعم: أي زاد (مختار الصحاح) .

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه: ٢٨٤٠ ، والبيهقي في شرح السنة: ١٩٣١ .

[أشار ابن القيم للحديث الصحيح الذي رواه مسلم ١٣٤٨ ، وغيره بلفظ « ما من يوم أكثر من أن يُعْتَقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ وَإِنَّهُ لِيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ ؟ » - المجلة] .

(٣) [الشارح لم يشير إلى أي حديث ولعله يقصد ما ذكرناه من حديث عائشة في مسلم، المجلة]

٤٩ فَكَمْ مِنْ عَتِيقٍ فِيهِ كُـمِّلَ عَتَقُهُ

وَأَخْرُ يُسْتَسْمَعِي وَرَبُّكَ أَرْحَمُ^(١)

أناس كثيرون حررهم الله سبحانه في هذا اليوم من أسر الذنوب والخطايا،
وتجاوز عنهم وغفر لهم زلاتهم ؛ لأنه جواد كريم رحيم بعباده .

وهناك آخرون لا يزالون يلحّون على ربهم بالدعاء ويطلبون منه أن يغفر
لهم ويتجاوز عن سيئاتهم. وهو سبحانه أرحم بعباده من أنفسهم على
أنفسهم.

٥٠ وَمَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ أَغْيَظَ فِي الْوَرَى

وَأَخْقَرَ مِنْهُ عِنْدَهَا وَهُوَ الْأَمُّ^(٢)

٥١ وَذَٰكَ لِأَمْرٍ قَدْ رَأَاهُ فَنَظَاهُ

فَأَقْبَلَ يَحْتُو التُّرْبَ غِيظًا وَيَلْطِمُ^(٣)

٥٢ لِمَا عَايَنْتُ عَيْنَاهُ مِنْ رَحْمَةٍ أَتَتْ

وَمَغْفِرَةٍ مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ تُقَسِّمُ^(٤)

لم يمر على الشيطان يوم هو أكثر وأشد غضباً ولا أعمق حزناً من يوم
عرفة ؛ فإنه - مع حزنه وغضبه - فهو حقير ذليل لثيم . وذلك لما يرى من
إقبال العباد على ربهم ، وكثرة دعائهم ، وشدة تضرعهم ؛ وكذلك ما يرى

(١) عتيق: العتق: الحرية ، يعني قد فكّ أسره من ذنوبه .

يستسعي: استسعى العبد يعني كلفه من العمل ما يؤدي به عن نفسه إذا اعتق بعضه
ليعتق به ما بقي (القاموس المحيط) .

(٢) أغيظ: الغيظ شدة الغضب . الوري: الخلق .

الأم: اللثيم: الدنيء الأصل الشحيح النفس .

(٣) يحتوا التراب: يرمي التراب على نفسه (النهاية في غريب الحديث) .
لطم: اللطم: الضرب على الوجه يباطن الراحة .

(٤) تقسم: تجزأ وتوزع .

من تنزل رحمات الله على عباده .

عن طلحة بن عبيدالله بن كرز أن رسول الله ﷺ قال: (ما رأيي الشيطان يوماً هو أصغر ولا أدهر ولا أحقر ولا أغيض منه في يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام ... الحديث) (١) .

٥٣ بَنَى مَا بَنَى حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ

تَمَكَّنَ مِنْ بُنْيَانِهِ فَهُوَ مُحْكَمٌ (٢)

٥٤ أَتَى اللَّهُ بُنْيَانًا لَهُ مِنْ أَسَاسِهِ

فَخَرَّ عَلَيْهِ سَاقِطًا يَتَهَدَّمُ

٥٥ وَكَمْ قَدْرُ مَا يَعْلُو الْبِنَاءُ وَيَنْتَهِي

إِذَا كَانَ بَيْنِيهِ وَذُو الْعَرْشِ يَهْدِمُ

إن الشيطان أفرغ كل ما يستطيع من طاقة في إضلال الناس ، واستخدم جميع جنده ، حتى ظن أن الناس قد هلكوا جميعهم ؛ لما يرى من ارتكاب الفواحش، وإتيان المنكرات، وفرح بذلك ، لكنه رأى رجوعهم إلى الله وكثرة دعائهم وتضرعهم إلى بارئهم ؛ وكذلك ما يرى من رحمة الله بعباده، وقبولهم عنده ، وغفرانه لذنوبهم جميعاً ، وإرجاعهم كيوم ولدتهم أمهاتهم .

وبهذا يكون كل ما بناه الشيطان قد تهدم ولم يبق له أثر ، وكيف للبنيان أن يرتفع إذا كان الشيطان بيني والله يهدم؛ فمهما سعى الشيطان في الإفساد بين عباد الله المؤمنين، فإن الله سبحانه جعل لهم مواسم ينزل عليهم فيها رحمته فإذا تعرض الإنسان إلى نفحات الله فلا يبقى عليه من الذنوب شيء .

(١) رواه مالك في الموطأ ، كتاب الحج حديث: ٢٤٥ ، ٤٢٢/١ ، وهو مرسل . قال الزرقاني في شرح الموطأ: ٣٩٥/٢: وصله الحاكم في المستدرک عن أبي الدرداء . قال ابن عبد البر في التمهيد: ١١٦/١: هذا حديث حسن في فضل شهود ذلك الموقف المبارك، وفيه دليل على الترغيب في الحج ، ومعنى هذا الحديث محفوظ من وجوه كثيرة، وفيه دليل على أن كل من شهد تلك المشاهد يغفر الله له ، إن شاء الله .

(٢) محكم: متقن البناء .

٥٦ وَرَاحُوا إِلَى جَمْعٍ فَبَاتُوا بِمَشْعَرِ

الْحَرَامِ وَصَلُوا الْفَجْرَ ثُمَّ تَقَدَّمُوا^(١)

٥٧ إِلَى الْجَمْرَةِ الْكُبْرَى يُرِيدُونَ رَمِيهَا

لَوْكَّتِ صَلَاةَ الْعِيدِ ثُمَّ تَيَمَّمُوا^(٢)

٥٨ مَنَازِلَهُمْ لِلنَّحْرِ يَبْتَغُونَ فَضْلَهُ

وَإِحْيَاءَ نُسُكٍ مِنْ أَبِيهِمْ يُعَظَّمُ^(٣)

ثم يتابع الإمام ، رحمه الله تعالى ، رحلة الحجاج بعد وقوفهم في عرفات ، وبعد تحقق غروب الشمس ، فإنهم ينفرون من عرفات إلى المزدلفة ويبيتون بها ويصلون صلاة الصبح ، ثم الدعاء عند المشعر الحرام . والمزدلفة هي المشعر الحرام . قال عمرو بن ميمون : سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام فسكت حتى هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة قال : أين السائل عن المشعر الحرام ؟ هذا المشعر الحرام . وقال ابن عمر : المشعر الحرام المزدلفة كلها^(٤) .

فيبقى يدعو ويتضرع إلى العلي القدير حتى يسفر جداً وقبل شروق الشمس يتوجهون إلى الجمرة الكبرى . وأشار المصنف ، رحمه الله ، إلى أن وقت رمي الجمرة هو وقت صلاة العيد الذي لا يُصلى إلا إذا ارتفعت الشمس ، وهذا هو الصحيح في رمي الجمرة . على خلاف ما يفعله كثير من الناس ؛ فإنهم يمشون في المزدلفة إلى بعد نصف الليل ثم يذهبون إلى الجمرة فيرمونها قبل الفجر ، وهذا خلاف السنة . ويحتج بعضهم بأن النبي

(١) جمع : مزدلفة : سميت به لاجتماع الناس بها .
المشعر الحرام : كل مزدلفة مشعر .

(٢) الجمرة الكبرى : هي التي تكون الأولى من جهة الكعبة ، والأخيرة من جهة مزدلفة .
رميها : ترمى بسبع حصيات مثل حصى الخذف . تيمموا : قصدوا .

(٣) نسك : العبادة أو الذبح ، وهو المقصود هنا .
أبيهم : أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

(٤) تفسير ابن كثير : ٢٤١/١ - ٢٤٢ .

ﷺ رخص للضعفة من الناس أن يتقدموا من مزدلفة إلى الجمرة بليل^(١) ، وهذا صحيح ، إلا أنه ﷺ لم يأمرهم أن يرموا قبل الشروق . وإنما الصحيح أن يمكث الحاج في المزدلفة يدعو ، وقبيل الشروق يتوجه إلى الجمرة الكبرى فيرميها بسبع حصيات التقطها من المزدلفة . وبعد الرمي يذهبون إلى منازلهم التي هي في منى ، فينحروا هديهم ، راجين من الله سبحانه أن يتقبل منهم وأن يمن عليهم من فضله العميم ؛ فإنه سبحانه جواد كريم .

وهي (عملية النحر) إحياء وتعظيماً لنسك الخليل إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم .

٥٩ فلو كان يُرْضِي اللهُ نَحْرُ نَفْسِهِمْ

لِدَانُوا بِهِ طَوْعاً وَكَلَامُ سَلْمُوا^(٢)

٦٠ كَمَا بَدَلُوا عِنْدَ الْجِهَادِ نَحْوَهُمْ

لَأَعْدَانَهُ حَتَّى جَرَى مِنْهُمْ الدَّمُ^(٣)

٦١ وَلَكِنَّهُمْ دَانُوا بِوَضْعِ رُؤُوسِهِمْ

وَذَلِكَ ذُلٌّ لِلْعَبِيدِ وَمَيْسَمٌ^(٤)

أمرهم الله سبحانه وتعالى بنحر الهدى فاستجابوا له ابتغاء مرضاته ، ولو علموا أن مرضاته عنهم تكون بذبح أنفسهم لفعلوا ذلك طائعين مسرعين في التنفيذ ، ومسلمين الأمر إليه سبحانه ، ولم يكن هذا مجرد ظن أو كلام لا واقع له ، بل هو حقيقة ؛ وأدل دليل عليه أنهم بذلوا دماءهم وأرواحهم وأموالهم رخيصة في سبيله وفي قتال أعدائه من الكفار .

كما أطاعوه في القتل والقتال في المعركة ، فإنهم أطاعوه هنا بحلق

(١) انظر صحيح مسلم من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهم .

(٢) نحر: ذبح . دانو: ذلوا . طوعاً: انقياداً .

(٣) بدلوا: أعطوا وجادوا . نحورهم: النحر هو موضع القلادة من الصدر . وهو المكان الذي منه تذبح الذبيحة .

(٤) ميسم: الجمال وكذلك المكواة .

الرؤوس ، وهذا هو غاية في الخضوع وعلامة على ذل العبد بين يدي سيده ومولاه . إذا حملنا معنى كلمة (ميسم) على الجمال فإن المعنى: إن عملية حلق الرؤوس تزيد الحاج جمالاً وبهاءً . أما إذا كان المعنى للكلمة (ميسم) هو المكواة . كان المعنى: إن عملية حلق الرؤوس هي الطريقة التي يبرهن العبد بها على ذله وخضوعه لربه سبحانه وتعالى .

٦٢ وَلَمَّا تَقَضُّوا ذَلِكَ التَّفَثَ الَّذِي

عَلَيْهِمْ وَأَوْفُوا نَذْرَهُمْ ثُمَّ تَمَّمُوا^(١)

بعد أن فعلوا الأمور التي على الحاج أن يقوم بها في ذلك اليوم من رمي الجمرة الكبرى ونحر الهدى وحلق الرؤوس . وفيه إشارة إلى قول الله سبحانه: ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ ﴾^(٢) .

٦٣ دَعَاهُمْ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ زِيَارَةً

فِيَا مَرْحَبًا بِالزَّائِرِينَ وَأَكْرَمَ

٦٤ فَلِلَّهِ مَا أَبْهَى زِيَارَتَهُمْ لَهُ

وَقَدْ حُصِّلَتْ تِلْكَ الْجَوَائِزُ تُقَسَّمُ^(٣)

٦٥ وَلِلَّهِ أَفْضَالٌ هُنَاكَ وَنِعْمَةٌ

وَبِرٌّ وَإِحْسَانٌ وَجُودٌ وَمَرْحَمٌ^(٤)

(١) تقضوا: قاموا بما عليهم من الأعمال حتى فرغوا منها .
التفث: إما أن يكون وضع الإحرام عن حلق الرأس وفعل الأمور التي كانت محظورة حال الإحرام ، وإما أن يكون هو المناسك نفسها ، كما ذكر ابن كثير في تفسيره: ٢١٧/٣ .

النذر: إما أن يكون النذر الذي أوجبه الإنسان على نفسه ، أو ذبائح الهدى ، أو جميع أعمال الحج .

تمموا: أتوا بجميع الأعمال التي عليهم في ذلك اليوم تامة من غير نقصان .

(٢) سورة الحج: ٢٩ .

(٣) أبهى: البهاء: الحسن .

(٤) إفضال: إحسان ، وأفضال: زيادة في العطاء والفضل .

نعمة: منة . بر: إحسان . جود: السخاء والكرم . مرحم: الرحمة: الرقة والمغفرة والتعطف .

إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾^(١) ؛ وقوله جل في علاه: ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾^(٢).

يقول المصنف، رحمه الله: هي دعوة من الله سبحانه لعباده بزيارة بيته العتيق .

وسُمِّيَ البيتُ بالعتيق: إما لقدمه ، حيث قال سبحانه: ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة ﴾^(٣).

وإما لأن الله سبحانه وتعالى أعتقه من الجبابة أن يُسَلِّطوا عليه . لأنه لم يُرده أحد بسوء إلا هلك ؛ وإما لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح^(٤).

فلما دعاهم لزيارة بيته استجابوا له . فإيا مرحباً بهم من زوار ، وأكرم بها من زيارة ، وأعظم به من مزور .

(فله ما أبهى) يتعجب من شدة حسن وجمال هذه الزيارة ، وقد فازوا بالجوائز القيمة من المولى جل في علاه؛ فهو يقسمها عليهم كل بحسب ما قدم من إخلاص نية وحسن عمل وشدة تضرع وطول قيام وكثرة بكاء .

٦٦ وَعَادُوا إِلَى تِلْكَ الْمَنَازِلِ مِنْ مَنِيٍّ

وَنَالُوا مِنْهَا مِمَّا عِنْدَهَا وَتَنَعَّمُوا^(٥)

٦٧ أَقَامُوا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَلَاثًا

وَأُذِّنَ فِيهِمْ بِالرَّحِيلِ وَأَعْلَمُوا

(١) سورة الحج: ٢٩ .

(٢) سورة الحج: ٣٣ .

(٣) سورة آل عمران: ٩٦ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير: ٢١٨/٣ .

(٥) منى: قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: ١٩٨/٥: منى: في ذَرَجِ الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار من الحرم . سمي بذلك لما يميني به من الدماء ، أي يراق . وقيل لأن آدم عليه السلام ثمنى فيها الجنة . وقال ابن شميل: سمي منى لأن الكبش منى به ، أي ذبح . أ.هـ .

٦٨ وَرَاحُوا إِلَى رَمِي الْجِمَارِ عَشِيَّةً

شَعَارُهُمُ التَّكْبِيرُ وَاللَّهُ مَعَهُمْ^(١)

يقول ، رحمه الله تعالى: إنهم أقاموا بمنى ثلاثة أيام ، وبعدها أعلموا بالذهاب من منى ؛ وفيه إشارة إلى قول الحق سبحانه: ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى ﴾^(٢) . وفي كل يوم من هذه الأيام يذهبون بعد الزوال لرمي الجمار .

ويصف حالهم وهم ذاهبون ؛ بأن ألسنتهم لا تفتقر من التكبير ، مع استشعارهم معية الله سبحانه .

٦٩ فَلَوْ أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ مَوْقِفَهُمْ بِهَا

وَقَدْ بَسَطُوا تِلْكَ الْأَكْفَ لِيَرْحَمُوا

٧٠ يُنَادُونَهُ يَا رَبُّ يَا رَبُّ إِنَّنَا

عَبِيدُكَ لَا نَدْعُو سِوَاكَ وَتَعْلَمُ

٧١ وَهَا نَحْنُ نَرْجُو مِنْكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ

فَأَنْتَ الَّذِي تُغْطِي الْجَزِيلَ وَتُنْعِمُ^(٣)

لو رأيتهم بعد رمي كل جمرة قياماً رافعي أيديهم ، ووجوههم نحو القبلة، وقلوبهم نحو خالقهم يلحون عليه بالسؤال ويتضرعون إليه بخشوع وتمسك عساهم ينالوا رحمته ورضاه .

وألسنتهم تنطق ببعض ما في قلوبهم، لأن اللسان في كثير من الأحيان لا يستطيع أن يعبر بكل ما في القلب . ينادونه بالاعتراف بتقصيرهم في حقه، وذكر الضعف والحاجة ؛ فهم عبيد وهو ربهم وهو أعلم بهم من أنفسهم .

(١) عشيّة: العشي: يبدأ بعد الزوال إلى المغرب (النهاية في غريب الحديث) .

(٢) سورة البقرة: ٢٠٣ .

(٣) الجزيل: العظيم الكثير .

ويقولون - بلسان الحال قبل المقال - إنهم يعبدونه ولا يشركون معه أحداً .
ويطلبون من مولاهم سبحانه أن يتفضل عليهم ويعاملهم بما هو أهله ،
فإنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة .

٧٢ وَكَمَا تَقْضُوا مِنْ مَنِي كُلِّ حَاجَةٍ

وَسَأَلْتُ بِهِمْ تِلْكَ الْبِطَاحُ تَقَدَّمُوا^(١)

٧٣ إِلَى الْكَعْبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَشِيَّةً

وَطَافُوا بِهَا سَبْعًا وَصَلُّوا وَسَلَّمُوا

لما أتموا كل ما عليهم من الأعمال التي يقوم بها الحاج في أيام منى ارتحلوا منها متجهين إلى البيت الحرام، وذلك بعد الزوال، أي بعد رميهم الجمار؛ سواء أكان ذلك في اليوم الثاني من أيام التشريق لمن أراد أن يتعجل، أم في اليوم الثالث لمن أراد أن يتأخر، وهو الأفضل ؛ لأنه فعل النبي ﷺ .
وقد تؤخذ الأفضلية أيضاً من قول الله تعالى: ﴿ ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى ﴾^(٢) .

وعندما وصلوا إلى الكعبة ، شرفها الله ، طافوا بها طواف الوداع ،
وصلوا في المسجد الحرام ما كتب الله لهم .

٧٤ وَكَمَا دَنَا التَّوْدِيعُ مِنْهُمْ وَأَيَقِنُوا

بِأَنَّ التَّدَانِي حَبْلُهُ مُتَّصِرٌ^(٣)

٧٥ وَكَمْ يَبْقَ إِلَّا وَقْفَةٌ لِمُودِعٍ

فَلِلَّهِ أَجْقَانٌ هُنَاكَ تُسَجَّمُ^(٤)

(١) تقضوا: قاموا بما عليهم من الأعمال حتى فرغوا منها . البطاح: جمع أبطح ،
والأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى (القاموس المحيط) .

(٢) سورة البقرة: ٢٠٣ .

(٣) التداني: القرب . متصم: متقطع .

(٤) تسجم: سال دمعها .

وبعد أن تيقنوا أنهم عن قريب سوف يغادرون هذا المكان الطاهر الذي تعلقت به قلوبهم ، واشتد إليه شوقهم ، وأن القرب الذي يعيشونه هذه اللحظات لم يدم لأن حبله قد تقطع ، ولم يبق بينهم وبين أن يغادروا إلا وقفة يقفها المحب ، لينظر إلى البيت النظرة الأخيرة كي يودعه ؛ ففي هذه اللحظات سالت الأجنان بالدموع المتابعة التي لا انقطاع لها .

٧٦ ولله أَكْبَادٌ هُنَالِكَ أودِعَ

الغَرَامُ بِهَا فَالنَّارُ فِيهَا تَضْرَمُ^(١)

٧٧ ولله أَنفَاسٌ يَكَادُ بِحَرْهَا

يَذُوبُ الْمُحِبُّ الْمُسْتَهَامُ الْمُتَمِّمُ^(٢)

٧٨ فَلَمْ تَرَ إِلَّا بَاهِتًا مَتَحِيرًا

وَأَخْرَى يُبْدِي شَجْوَهُ يَتَرَنَّمُ^(٣)

يتعجب من هذه الأكباد التي جعل فيها الغرام وديعة . والغرام هو شدة الألم الذي يجده المحب إذا فارق محبوبه ؛ قال سبحانه: ﴿ إن عذابها كان غراما ﴾^(٤) .

فهذه الأكباد تتعذب عذاباً لا يطاق إذ النار تشتعل فيها على فراق الأحبة . ويتعجب كذلك من تلك الأنفاس التي تزرع الهواء الساخن ، بسبب نار الفراق المستعرة في جوف المحبين الذين استولى عليهم الحب وشدة الوجد ؛ فهذا حالهم بعد ما هموا بالرحيل: إما أن يكون أحدهم متحيراً لا يدري كيف يتحمل ألم الفراق ، وفريق آخر يبدي أحزانه بصوت حزين قد حسنه ليتلو به آيات من كتاب ربه أو كلمات يتضرع بها إلى سيده ومولاه . يفعل هذا كي يخفف ما به من ألم الفراق .

(١) أودع: جعل الغرام فيها وديعة . تضرع: تشتعل .

(٢) المستهام: هائم: الذي لا يدري أين يذهب . المتيم: الذي صيره الحب عبداً ذليلاً .

(٣) باهتاً: يهت: دهش وتحير . شجوه: همه وحزنه . يترنم: يرجع صوته .

(٤) سورة الفرقان: ٦٥ .

٧٩ رَحَلْتُ وَأَشْوَقِي إِلَيْكُمْ مُقِيمَةً

وَتَأْرُ الْأَسَى مِنْي تَشْبٌ وَتَضْرِمُ^(١)

٨٠ أَوْدَعُكُمْ وَالشَّوْقُ يَنْبِي أَعْتِي

وَقَلْبِي أَمْسَى فِي حِمَاكُمْ مُخِيْمٌ^(٢)

٨١ هُنَالِكَ لَا تَثْرِيْبَ يَوْمًا عَلَى أَمْرِي

إِذَا مَا بَدَأَ مِنْهُ الَّذِي كَانَ يَكْتُمُ^(٣)

نعم ، أنا انتقلت من تلك الديار بجسدي ، أما قلبي وأشواقِي ومشاعري فهي لا زالت مقيمة هناك في دار المحيين . أما الجسد ، فهو وحده الذي غادر وارتحل . ارتحل والنار الملتهبة من شدة الحزن تشتعل وتوقد في داخله .

أريد أن أفارقكم ، ولكن الاشتياق إليكم هو الذي يمنعني من الذهاب ، ويحاول أن يرجعني إليكم ؛ وكذلك قلبي ، لا يريد أن يفارق المكان الذي أنتم به ؛ لأنه حل وأقام في أرضكم .

أما في ساعة التوديع والفراق ، فليس على الإنسان لوم ولا تأنيب إذا أعلن عن الذي في داخله من الشوق ، لأنه لا يستطيع أن يكتمه .

٨٢ فَيَا سَائِقِينَ الْعَيْسَ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ

قِفُوا لِي عَلَى تِلْكَ الرَّبُّوعِ وَسَلِّمُوا^(٤)

٨٣ وَقُولُوا مُحِبُّ قَادَهُ الشَّوْقُ نَحْوَكُمْ

قَضَى نَحْبَهُ فَيَكُمُ تَعِشُوا وَتَسَلِّمُوا^(٥)

(١) الأسى: الحزن . تشب: توقد . تضرم: تُشعل .

(٢) يثبي: ثناه: كفه وصرفه عن حاجته . أعنة: جمع عنان وهو لجام الفرس .

(٣) تثرِب: التعبير والاستقصاء في اللوم .

(٤) العيس: الإبل البيض مع شقرة يسيرة (النهاية) .

(٥) قضى نحبه: أدرك ما تمنى ، أو قضى نذره ، أو هو الموت ، (لسان العرب) .

يناشد الذين يقومون على قيادة القافلة ، ويستحلفهم أن يقفوا قليلاً في ديار الأحبة؛ كي يسلموا على أهلها ، ويخبروهم أن في القافلة من أسره الشوق فيكم ، وساقه إليكم ، ثم قضى فيكم ما كان يتمنى . فها هو جاء إليكم ، وحل في دياركم ؛ وهذه كانت أمنيته ، ثم ارتحل بعد ما قضى فيكم نجه .

٨٤ قضى الله رب العرش فيما قضى به

بأن الهوى يُعَمِّي القلوبَ ويُبَكِّم^(١)

٨٥ وَحُبُّكُمْ أَصْلُ الْهَوَى وَمَدَارُهُ

عَلَيْهِ وَفَوْزٌ لِلْمُحِبِّ وَمَفْتَنٌ

إن الله سبحانه وتعالى قدر وكتب أن من أحب أحداً فإن قلبه يتعلق به ، فلا يستطيع أن يرى شيئاً إلا عن طريقه ، ولا يعقل إلا بوساطته ؛ فما أحبه الحبيب فهو الحسن ، وهو الحق ، والصواب ؛ وما خالفه فلا سبيل في الوصول إليه .

وإذا كان الأمر كذلك ؛ فإن حبي وأشواقي فيكم ؛ فلا سبيل إلى قلبي إلا من قبلكم . قال الحق سبحانه: ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾^(٢) . ومن كان على هذه الشاكلة فهو الفائز الرابع في الدنيا والآخرة .

٨٦ وَتَفَنَّى عِظَامُ الصَّبِّ بَعْدَ مَمَاتِهِ

وَأَشْوَاقُهُ وَقَفَّ عَلَيْهِ مُحَرَّمٌ^(٣)

كل ميت سوف تبلى عظامه وتصبح رميماً ، وكذلك المحب أيضاً ، لكن أشواقه باقية لم تذهب كبقاء الوقف؛ فإنه لا يجوز لأحد أن يبيعه أو يفسده .

(١) الهوى: الميل والعشق ، ويكون في الخير والشر .

يبكِّم: البكم: الخرس ، أو أن يولد ولا ينطق ولا يسمع ولا يبصر (القاموس) .

(٢) سورة البقرة: ١٦٥ .

(٣) تفنى: تعدم وتبلى . الصب: المحب .

٨٧ فَيَا أَيُّهَا الْقَلْبُ الَّذِي مَلَكَ الْهَوَى

أَزَمَّتْهُ حَتَّى مَتَى ذَا التَّلَوُّمِ^(١)

٨٨ وَحَتَّامَ لَا تَصْحُو وَقَدْ قَرُبَ الْمَدَى

وَدَنَّتْ كُؤُوسُ السَّيْرِ وَالنَّاسُ نُومٌ^(٢)

٨٩ بَلَى سَوْفَ تَصْحُو حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَطَا

وَيَبْدُو لَكَ الْأَمْرُ الَّذِي أَنْتَ تَكْتُمُ

يخاطب قلوب المؤمنين الذين أسرت في حب الله، واستولى عليها الشوق إلى لقائه . يقول لهم: لِمَ أَنْتُمْ غَافِلُونَ؟ وإلى متى هذه الغفلة؟ ألم يأن لكم أن تفيقوا؟ ألم تعلموا أن الحياة قصيرة؟ بل هي ساعات تُعَدُّ ، وقد قرب وقت الرحيل ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

نعم ، سوف تعلم الحقيقة بعد أن تتضح لك الأمور ، ولكن في وقت لا ينفع فيه الندم ؛ كما يذكر عن علي رضي الله عنه: « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا »^(٣) . فسوف ترى في ذلك اليوم ما لم تره في الدنيا ؛ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾^(٤) .

٩٠ وَيَا مُوقِداً ناراً لغيرِكَ ضَوْءُهَا

وَحَرٌّ لظاها بَيْنَ جَنبَيْكَ يَضْرِمُ^(٥)

٩١ أَهَذَا جَنَى الْعِلْمِ الَّذِي قَدْ عَرَسْتَهُ

وَهَذَا الَّذِي قَدْ كُنْتَ تَرْجُوهُ يُطْعَمُ^(٦)

(١) أزمة: جمع زمام وهو ما يشد به . زم البعير: خطمه . التلوم: الانتظار والتمكث .

(٢) حتام: مكونة من (حتى) الحارة و(ما) الاستفهامية . المدى: الغاية .
دنت كؤوس السير: حان وقت الرحيل .

(٣) انظر المقاصد الحسنة: ١٢٤٠ ، والسلسلة الضعيفة: ١٠٢ .

(٤) سورة ق: ٢٢ .

(٥) لظاها: لهيها . يضرم: يشتعل .

(٦) جنى: ما يلتقط من الثمر .

٩٢ وَهَذَا هُوَ الْحِظُّ الَّذِي قَدْ رَضِيْتَهُ

لِنَفْسِكَ فِي الدَّارَيْنِ جَاءَ وَدَرِهَمٌ^(١)

٩٣ وَهَذَا هُوَ الرَّبْحُ الَّذِي قَدْ كَسَبْتَهُ

لِعَمْرِكَ لَا رِبْحٌ وَلَا الْأَضْلُ يُسَلِّمُ^(٢)

يضرب مثلاً لكل من يقدم للناس ما ينفعهم ، سواء أكان ذلك في أمور الدين أم الدنيا ، فإن كل إنسان قبل أن يفكر بنجاة غيره عليه أن يفكر بنجاة نفسه ، لا أن يُنير للناس طريقهم ويمشي هو في الظلام .

إن العلم الذي تعلمته ، وأتعبت نفسك في تحصيله ، وضيعت الكثير من الوقت من أجله ؛ هل أخلصت فيه النية لله ؟

وهل كل ما رجوته من تعلمك للعلم هو أن تحصل على بعض المال ؟ أو أن تكون لك الواجهة عند الناس ؟ أو أن تصدر المجالس ؟ أهذا هو حظك من العلم في الدنيا والآخرة ؟

فإن هذا المكسب الذي حصلت عليه شيءٌ فإن سرعان ما يزول عنك بمجرد موتك ، ولكن تبقى عليك تبعاته .

فلا شك في أن من تعلم العلم الشرعي لغير وجه الله فإنه سوف ينال العقاب الأليم من الله تبارك وتعالى . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ؛ لم يجد عرف الجنة يوم القيامة)^(٣) ؛ يعني ربحها .

(١) الحظ: النصيب . الدارين: الدنيا والآخرة .
جاء: القدر والمنزلة .

(٢) لعمرك: مكونة من (لام الابتداء) ولفظ القسم الصريح (عمرك) ويعرب مبتدأ محذوف الخبر وجوباً تقديره (قسمي) . انظر معجم الشوارد النحوية ، وإعراب القرآن لمحي الدين الدرويش .

(٣) رواه أحمد: ٣٣٨/٢ ، وأبو داود: ٣٦٦٤ ، وانظر ابن ماجه وابن عبد البر ، وهو صحيح [يراجع اقتضاء العلم العمل ، تحقيق الألباني رقم: ١٠٢ ، المجلة] .

قوله: (لا ربح ولا الأصل يسلم) : يعني الذي تعلم لغير الله لا يؤجر يوم القيامة ، ولا يسلم بنفسه من العذاب .

٩٤ بَخِلْتَ بِشَيْءٍ لَا يَضُرُّكَ بَدَلُهُ

وَجَدْتَ بِشَيْءٍ مِثْلَهُ لَا يُقْوِمُ^(١)

٩٥ بَخِلْتَ بِذَا الْحِظِّ الْحَسِيسِ ذِنَاءَةً

وَجَدْتَ بِدَارِ الْخُلْدِ لَوْ كُنْتَ تَقْهَمُ^(٢)

٩٦ وَبِعْتَ نَعِيمًا لَا انْقِضَاءَ لَهُ وَلَا

نَظِيرَ بِيخْسٍ عَن قَلِيلٍ سَيُعْدَمُ^(٣)

٩٧ فَهَلَا عَكَسْتَ الْأَمْرَ إِنْ كُنْتَ حَازِمًا

وَلَكِنْ أَضَعْتَ الْحَزْمَ لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ^(٤)

المال الفاني الذي حرصت على جمعه وتخزينه ومنعت إنفاقه في وجوه الخير ؛ لو أنفقته فلا يضررك إنفاقه ، بل حبسه هو الذي يضررك ، وهو من تزوين الشيطان ؛ قال الله تعالى: ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾^(٥) . عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال: (ما نقصت صدقة من مال ...)^(٦) .

ومقابل هذا البخل والحرص قد جدت وبذلت وزهدت بالجنة والنعيم الدائم ، وما هذا إلا من قلة فهم وسوء تصرف ؛ لأن نعيم الجنة ليس له

(١) بَدَلُهُ: جاد به وأعطاه . وجدت: الجواد: السخي . لا يُقْوِمُ: لا تحدد قيمته .

(٢) الحسيس: الدنيء الحقير . الدنيء: الخيث .

(٣) نظير: المثل . بيخس: ينقص . سيعدم: سيفقد .

(٤) الحزم: ضبط الأمر ، أو ضبط الرجل أمره وأخذه بالثقة .

(٥) سورة البقرة: ٢٦٨ .

(٦) رواه مسلم: ٢٥٨٨ .

شبيهه ولا نظير ، لأنه لا ينفد: ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾^(١) . فكيف يستبدل الإنسان الخسيس الحقير الفاني بالنفيس الباقي .

هذه عروض الدنيا التي فضلتها على نعيم الآخرة لا قيمة لها ، ولا تنفع صاحبها بعد موته ، بل تصبح ملكاً لغيره .

فإن كل ذي رأي صائب لا يتردد في أن يعكس الأمر ؛ بأن يحتفظ بالنفيس الباقي ، ويزهد ويترك الحقير الفاني .

٩٨ وَتَهْدِمُ مَا تَبْنِي بِكَفِّكَ جَاهِداً

فَأَنْتَ مَدَى الْأَيَّامِ تَبْنِي وَتَهْدِمُ

هذا النوع من الناس ، وإن فعل بعض الطاعات وأتى ببعض القربات والأعمال الصالحة ، فإنه سرعان ما يفسد عمله ؛ إما بعدم إخلاص التّية ، وإما بالمن والأذى ؛ قال الحق سبحانه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾^(٢) ، وإما أن يكون العمل على خلاف السنة . عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)^(٣) ؛ فإن أمثال هؤلاء يعملون ، ولكنهم ينقضون أعمالهم بأيديهم ، بل هي وبال عليهم يوم القيامة .

٩٩ وَعِنْدَ مُرَادِ اللَّهِ تَفْنَى كَمِيَّتِ

وَعِنْدَ مُرَادِ النَّفْسِ تُسْدي وَتُلْحَمُ^(٤)

إذا جاءك أمر الله بأن تفعل كذا أو أن تجتنب كذا يصيبك الذوبان ، وتصبح كالليت تماماً ؛ لا تسمع ولا تعقل . أما إذا جاءت الشهوة ومراد

(١) سورة الواقعة: ٣٣ .

(٢) سورة البقرة: ٢٦٤ .

(٣) رواه مسلم: ١٧١٨ . أما رواية: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) . فقد رواها البخاري ومسلم وغيرهما .

(٤) مراد: المشيئة والطلب . تفنى: تعدم . تسدي: سدا: مَدْ يَدُهُ نحو الشيء . تلحم: لحم الأمر: أحكمه . ورجل لحم: أكل لحم . ورجل ملحم: إذا كثر عنده اللحم .

النفس الأمانة بالسوء ، فإنك تقبل عليها بشدة حتى لا تستطيع أن تميز بين الخير والشر .

١٠٠ وَعِنْدَ خِلَافِ الْأَمْرِ تَحْتَجُّ بِالْقَضَا

ظَهيراً عَلَى الرَّحْمَنِ لِلجَبْرِ تَزْعُمُ^(١)

إذا خالفت أوامر الشرع ، وفعلت المحظور ، وارتكبت المحرمات ، وتركت الواجبات ؛ فإنك تزعم أن هذا قد كتبه الله عليك في الأزل ، وأنت لا تستطيع أن تفعل غيره لأنك مسير لا إرادة لك ، فأنت تعين بهذا أهل الباطل المخالفين لأوامر الله ، وتنحاز إليهم ، وتتبنى عقيدة الجبرية التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً^(٢) . أي إن كل ما يقوم به العبد من أعمال الخير والشر ، وفعل الطيب والخبيث ، وإتيان المباحات والمحرمات ، ينسبون كل هذا إلى الله لأنه الذي كتبه على العبد ، والعبد لا خيار له ، ولا مشيئة ، ولا عمل ، ولا قدرة على العمل ؛ وإنما هو مسير تسييراً كاملاً . وهذا باطل واضح البطلان ؛ لأن علم الله السابق بأن هذا العبد ماذا يختار فيعمل باختياره ، فكتب الله سبحانه عليه أنه شقي أو سعيد وهو في بطن أمه ؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم أن هذا العبد بعد ذلك أي الطريقين يسلك فكتبه عليه .

١٠١ تَنْزَهُ مِنْكَ النَّفْسَ عَنْ سُوءِ فِعْلِهَا

وَتَعْتَبُ أَقْدَارَ الْإِلَهِ وَتَنْظُمُ^(٣)

إذا طلبت منك نفسك فعل القبيح وارتكاب ما حرم الله ، فإنك تلتمس

(١) خلاف الأمر: فعل ما يخالف الأوامر الشرعية .
ظهير: معين .

(٢) قال الشهرستاني في الملل والنحل: ٨٥/١ ، والجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى ؛ فالجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلاً وقدرة على الفعل أصلاً .

(٣) تنزه: تباعدها عن كل مكروه .
تعتب: تنتقص (النهاية في غريب الحديث) .

الأعذار من هنا وهناك ؛ لكي تجد لنفسك مساعفاً لفعالها ، وأنها لم تفعل إلا ما فيه الخير والصلاح . وإذا وقعت في مكروه ، فإن اللوم كل اللوم على القدر الذي كتبه الله عليك ، ظلماً لك ، وهضماً لحقوقك ، واختصك أنت بالمكروه من دون العباد .

١٠٢ نُحِلُّ أُمُوراً أَحْكَمَ الشَّرْعُ عَقْدَهَا

وَتَقْصِدُ مَا قَدْ حَلَّهُ الشَّرْعُ تُبْرَمُ^(١)

١٠٣ وَتَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ خِلافَ مَا

أَرَادَ لِأَنَّ الْقَلْبَ مِنْكَ مُعْجَمٌ^(٢)

كثير من القضايا والأمور حكمها واضح في الإسلام ، من حل وتحريم . فينيري أناس طمست بصائرهم ، فيضعون أنفسهم في مقام الله جل وعلا ، فيحلون للناس ويحرمون عليهم ؛ متبعين أهواءهم وشهواتهم . ولا شك في أن الذي ينصب نفسه للتحليل والتحريم إما أن يكون من الكاذبين ؛ لقول الله سبحانه: ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾^(٣) .

وإما أن يكون قد نصب نفسه للألوهية ، لأن التشريع من اختصاص الإله ؛ قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾^(٤) .

فإن صاحب القلب المعجم ، الذي لا يفقه ولا يقدر على تمييز الأمور ، يأتي إلى أحاديث رسول الله ﷺ فيفهمها على خلاف مرادها ؛ فتجده يتخبط في أمور الشرع .

(١) نحل: حل العقدة: فتحها . تبرم: أبرم الشيء: أحكمه (مختار الصحاح) .

(٢) معجم: العجماء: البهيمة، سميت به لأنها لا تتكلم ؛ وكل ما لا يقدر على الكلام فهو أعجم (النهاية في غريب الحديث) .

(٣) سورة النحل: ١١٦ .

(٤) سورة الشورى: ٢١ .

١٠٤ مُطِيعٌ لِدَاعِيِ الْغَيِّ عَاصٍ لِرُشْدِهِ

إِلَى رَبِّهِ يَوْمًا يُرَدُّ وَيَعْلَمُ^(١)

تجده مطيعاً لكل ناعق شر ، متخذاً دعاة الباطل قدوة له . أما طريق الهداية والنور ، طريق الخير والفلاح ، فهو معرض عنه ولا يلتفت إليه . ومع هذا ؛ فهو لا بد وأن يأتي اليوم الذي يموت فيه ، ثم يرد إلى ربه ؛ وسوف يعلم بعد ذلك أنه كان مخطئاً ، ولكن لا فائدة حينئذ .

١٠٥ مُضِيعٌ لِأَمْرِ اللَّهِ قَدْ غَشَّ نَفْسَهُ

مُهِينٌ لَهَا أَنْتَى يُحَبُّ وَيُكْرَمُ^(٢)

لقد تركت أوامر الله سبحانه ولم تعمل بها ، وكنت السبب في هلاك نفسك ؛ لأنك لم تزجرها وتمنعها عن هواها ، وإنما أطلقت لها العنان ؛ وهذا هو الغش لها ؛ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى ﴾^(٣)

والذي يفعل كل ما تشتهي نفسه فإنه - ولا شك - سوف ينقاد لها ، ويوردها موارد الرذيلة ، ويكون عبداً لهواه ، فيكون قد أهان نفسه وسقط من أعين الناس ؛ فلا يحبه تقي ، ولا يكرمه مؤمن .

١٠٦ بَطِيءٌ عَنِ الطَّاعَاتِ أَسْرَعُ لِلْخَنَا

مَنْ السَّيْلِ فِي مَجْرَاهُ لَا يَتَّقَسَمُ^(٤)

مقصر في فعل الطاعات ، متكاسل في أدائها . أما للفواحش فهو مقدم أسرع من السيل إذا كان متجمعاً ولم يتشعب .

(١) الغي: الضلال والانهمال بالباطل (النهاية) .
الرشد: ضد الغي .

(٢) مضيع: مهمل. غش: غشه: لم يَمَحْضُهُ النصح، أو أظهر له خلاف ما أضمـر.
مهيئ: مُذِل .

(٣) سورة النازعات: ٤٠ - ٤١ .

(٤) للخنا . خنا خنوا: أفحش .

١٠٧ وَتَزْعُمُ مَعَهُ هَذَا بِأَنَّكَ عَارِفٌ

كَذَبْتَ بِقِينَا فِي الَّذِي أَنْتَ تَزْعُمُ

١٠٨ وَمَا أَنْتَ إِلَّا جَاهِلٌ ثُمَّ ظَالِمٌ

وَأَنَّكَ بَيْنَ الْجَاهِلِينَ مُقَدَّمٌ

ومع ما أنت عليه من ترك الواجبات ، وفعل المحرمات ، والبطء بفعل الخيرات ، والإسراع للفتوحات ، وما أنت عليه من الفهم السقيم لأحكام الشرع . مع هذا كله ، تزعم أنك تعرف حقائق الأمور ومقاصد الشرع .

لا شك في أنك كاذب فيما ادعيت ، وإنما هو زعم منك . وإنما الحقيقة الواضحة أنك تجهل الأمور التي يعلمها العامي من الناس ، فضلاً عن الأمور التي تحتاج إلى بحث ودراسة . وما ذاك إلا لأنك لست من الجاهلين فحسب ، وإنما من أجهل الجاهلين .

١٠٩ إِذَا كَانَ هَذَا نُصَحَ عَبْدٍ لِنَفْسِهِ

فَمَنْ الَّذِي مِنْهُ الْهُدَى يُتَعَلَّمُ

من الأمور البديهية أن الإنسان يقدم ما فيه مصلحة نفسه على مصلحة غيره . ومن هذا الباب ؛ أن الذي يسعى في مصالح الناس وقضاء حوائجهم ويجهد نفسه في هذا - ولو على حساب مصالحه - أنه لو لم يعلم أن الله سبحانه سوف يعظم له الجزاء - سواء في الدنيا أو في الآخرة - لما عمل شيئاً من ذلك .

أما الظالم لنفسه ، والغاش لها ، إذا كان هذا تصرفه مع نفسه ، فكيف يرجى منه النفع لغيره ؟ وفاقد الشيء لا يعطيه .

١١٠ وَفِي مِثْلِ هَذَا الْحَالِ قَدْ قَالَ مَنْ مَضَى

وَأَحْسَنَ فِيمَا قَالَهُ الْمَتَكَلِّمُ

١١١ فإن كُنْتَ لَا تَدْرِي فتلِكَ مُصِيبَةٌ

وإن كُنْتَ تَدْرِي فآلمصيبةُ أعظم

إن هذا الغاش لنفسه؛ ويظن أنه ناصح لها. والجاهل بالأمور؛ ويظن أنه عالم بها. عن مثل هذا الصنف من الناس قد قال الأولون هذه المقالة: (إن كنت لا تدري . . .) يعني: إن كنت جاهلاً بأمور الشرع وأمور الحياة فهي مصيبة؛ لأن الجاهل عدو نفسه، والجهل ظلمات. هذا بالنسبة للجاهل الذي يعلم أنه لا يعلم، ويترك العمل لأنه لا يستطيع أن يعمل بغير علم. أما الذي يعلم أنه لا يعلم، ويعمل بعد ذلك بغير علم، ويتخبط بجهله؛ فهذه أعظم من تلك.

١١٢ وَكُوْتُبِصِرُ الدُّنْيَا وَرَاءَ سُتُورِهَا

رَأَيْتَ خَيْالًا فِي مَنَامٍ سَيُصْرَمُ^(١)

١١٣ كَحَلْمِ بَطِيفٍ زَارَ فِي النَّوْمِ وَأَنْقَضَى

المَنَامُ وَرَاحَ الطِّيفُ وَالصَّبُّ مُغْرَمٌ^(٢)

١١٤ وَظَلُّ أُرْتُهُ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا

سَيَقْلُصُ فِي وَقْتِ الزَّوَالِ وَيُقْصَمُ^(٣)

١١٥ وَمُزْنَةٌ صَيْفٍ طَابَ مِنْهَا مَقِيلُهَا

فَوَلَّتْ سَرِيعًا وَالْحَرُورُ تَضْرَمُ^(٤)

- (١) ستورها: ستور جمع ستر، وهو ما يستر به ويغطي ويحجب (القاموس).
خيالاً: الخيال: الطيف، وهو من التخيل والوهم. سيصرم: سيقطع.
(٢) بطيف: الطيف: الخيال مجيئه في النوم.
صب: مشتاق، والصبابة: رقة الشوق وحرارته.
مغرم: أسير الحب، أو المولع.
(٣) سيقلص: سينقبض ثم يذهب. الزوال: زالت الشمس: مالت عن كبد السماء.
يقصم: يقلع.
(٤) مزنة: سحابة. مقيلاها: المقيط: النوم في نصف النهار.
الحرور: الريح الحارة. تضرم: تلتهب.

١١٦ وَمَطْعَمٌ ضَيْفٍ لَدُنْهُ مَسَاغُهُ

وَبَعْدَ قَلِيلٍ حَالَهُ تَلِكَ تَعْلَمُ^(١)

الناظر الحقيقي لهذه الحياة ، والذي ينظر بعين البصيرة ، سوف يعلم أنها زائلة ، بل هي مثل الخيال الذي يأتي للنائم ثم يذهب بعد ذلك .
ويذكر المصنف ، رحمه الله ، بعض الأمور ليمثل بها عن حقارة الدنيا وزوالها حيث يقول:

(كحلّم بطيف ...) مكلها كمثل عاشق محب مشتاق إلى محبوبه وفي أثناء نومه رأى محبوبه في المنام ، ومن شدة فرحه فزع لذلك اللقاء ، ومن فزعه استيقظ من نومه فلم ير شيئاً . هكذا الحياة ، يعيش فيها الإنسان عمره ، وعندما يحين وقت الوفاة كأنه لم يعيش فيها إلا سويعات .

وقوله: (وظل أرته الشمس ...) أي إن الدنيا كمثل الظل الذي تشاهده عندما تشرق الشمس ، فإذا زالت زال الظل وذهب .

وقوله: « ومزنة صيف ... » ومثل الدنيا - كذلك - كمثل سحابة في وقت الصيف ، جاءت فحجبت الشمس ، فانخفضت الحرارة وارتاح الناس في وقت الظهيرة وناموا ، وما هي إلا لحظات حتى ذهب السحابة وطلعت الشمس بحرارتها الملتهبة .

وقوله: (ومطعم ضيف ...) أيضاً ، مثل الدنيا كمثل الطعام الطيب اللذيذ في طعامه الشهوي وفي راحته ، وبعد الأكل بفترة قصيرة سوف يتغير ويصبح متن الرائحة قبيح المنظر تعافه النفس .

١١٧ كَذَا هَذِهِ الدُّنْيَا كَأَحْلَامِ نَائِمٍ

وَمَنْ بَعْدَهَا دَارُ البَقَاءِ سَتَقْدَمُ^(٢)

(١) مساعه: ساغ الشراب: سهل مدخله في الخلق (مختار الصحاح) .

(٢) دار البقاء: يوم القيامة .

١١٨ فجزها مُمرّاً لا مُقرّاً وكُنْ بها

غَرِيباً نَعِشْ فِيهَا حَمِيداً وَتَسْلَمْ^(١)

١١٩ أو ابن سبيل قال في ظلّ دَوْحَةٍ

وَرَاخٍ وَخَلَى ظِلَّهَا يَتَقَسَّمُ^(٢)

١٢٠ أَخَا سَقَرٍ لَا يَسْتَقِرُّ قَرَارُهُ

إِلَى أَنْ يَرَى أَوْطَانَهُ وَيُسَلِّمُ

بعد أن ذكر المصنف ، رحمه الله ، أمثلة على تفاهة الدنيا وحقارتها وقصر مدتها ، أردف ذلك بقوله: (كذا هذه الدنيا كأحلام ...) أي إن بقاء الدنيا واستمتاع أهلها بها ، كالنائم عند ما يرى في نومه أحلاماً فيرتاح لها ويأنس بها ، ولكنه بمجرد أن يستيقظ من نومه يذهب كل شيء ؛ كذلك الدنيا ، فإنها تزول وتذهب بمجرد أن يموت . ولكن بعد زوال الدنيا فإن الآخرة سوف تأتي ، ويُسأل العبد عن كل صغيرة وكبيرة .

فاستمع إلى المصنف حيث يقول: (فجزها ممرا ...) أي اعبرها ، كأنما هناك جسر وضع على حافتي نهر ، وجاء الناس لكي يعبروا هذا النهر من على متن ذلك الجسر . وكذلك ، على الإنسان أن يتخفف منها ما استطاع ، ولا يثقل نفسه بها ، ويجعل نفسه فيها كالغريب الذي لا يعرف أحداً .

وأن يكون فيها كمثل المسافر الذي مر على شجرة عظيمة الظل ، فأقام تحتها ليستريح من عناء السفر ، ثم تركها ليواصل سيره ؛ وفيه إشارة إلى قول ابن عمر رضي الله عنهما حيث قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) ؛ وكان ابن عمر يقول: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ،

(١) فجزها: جاز الموضع: سلكه وسار فيه وخلفه .

مقرا: القرار: المستقر من الأرض .

(٢) ابن سبيل: المسافر الكثير السفر ، سُمي ابناً لها لملازمته إياها (النهاية) .
قال: نام في الظهيرة . دوحه: الشجرة العظيمة المتسعة من أي الشجر كانت . يتقسم: يتجزأ .

وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك (١).

والمسافر لا يهدأ باله ولا تستقر نفسه حتى يرجع إلى وطنه ، ويسلم على أهله ومعارفه ويطمئن على أحوالهم .
١٢١ فيا عجباً كم مَصْرَعٍ وَعَظَتْ بِهِ

بِنِيهَا وَلَكِنْ عَنِ مَصَارِعِهَا عَمُوا (٢)

يتعجب ، رحمه الله ، من كثرة ما يرى الناس أمامهم من نهايات غيرهم ، ولكن لا يتعظ إلا القليل منهم ؛ لأنهم يملكون الأبصار ولا بصائر لهم ؛ كما روي عن بعض الصحابة: (كفى بالموت واعظاً) (٣) ، وروي أبو هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: (أكثروا من ذكر هادم اللذات: الموت) (٤).

١٢٢ سَقْتَهُمْ كُؤُوسَ الْحَبِّ حَتَّى إِذَا نَشُوا

سَقْتَهُمْ كُؤُوسَ السُّمِّ وَالْقَوْمُ نَوْمٌ (٥)

أرضعتهم الدنيا حبها فتنافسوا فيها وفي جمعها ، فلا هم لهم إلا الإكثار من حطامها . حتى إذا جمعوا ما استطاعوا جمعه أتاهم الموت وهم غافلون .

عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه ، في حديثه عن النبي ﷺ وفيه: (... فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا

(١) رواه البخاري: ٦٤١٦ ، ٢٣٣/١١ .

(٢) مصرع: صرعه صرعاً: طرحه على الأرض ، ويقال: صرعه النية .
بنيتها: أبنائها .

(٣) رواه أحمد في الزهد: ص ١٧٦ ، عن عمار بن ياسر . انظر السلسلة الضعيفة للالباني رقم: ٥٠٢ .

(٤) رواه الترمذي: ٢٣٠٧ ، والنسائي: ٤/٤ ، وابن ماجه: ٤٢٥٨ . [وهو حديث حسن صحيح يراجع الإرواء ، ٦٨٢ ، المجلة] .

(٥) نشوا: سكروا .

عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ،
وتهلككم كما أهلكتهم (١).

١٢٣ وَأَعْجَبُ مَا فِي الْعَبْدِ رُؤْيَهُ هَذِهِ

الْعِظَائِمِ وَالْمَغْمُورُ فِيهَا مُتَمِّمٌ (٢)

١٢٤ وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ خَمْرَةَ حُبَّهَا

لَتَسْلُبُ عَقْلَ الْمَرْءِ مِنْهُ وَتَصْلُمَ (٣)

١٢٥ وَأَعْجَبُ مَنْ ذَا أَنْ أَحْبَابَهَا الْأُولَى

تُهَيِّنُ وَلِلْأَعْدَا تُرَاعِي وَتُكْرَمُ (٤)

والعجب كل العجب أن الإنسان يرى ويستشعر الأمور العظيمة والمخاطر
الجسيمة ، ثم إن حب الدنيا قد أذهب عقله وسيطر على أحاسيسه ؛
فانغمس فيها ولا يفكر في غيرها .

وسبب ذلك أن حلاوتها وزخارفها وجمالها (الظاهر فقط) قد ذهب
بعقول من افتتن بها ، فجلبتهم إليها وقطعتهم فيها تقطيعاً .

وأكثر عجباً مما تقدم ! أن الدنيا تهين من تعلق بها وتُذلل من أكرمها .
عن زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (من كانت الدنيا همه
فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كُتِبَ
له . ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ،
وأنته الدنيا وهي راغمة) (٥).

(١) رواه البخاري: ٢٦٢٥ ، ومسلم: ٢٩٦٠ ، واللفظ له .

(٢) المغمور: غمره الماء أي علاه ، والانغمار: الانغماس .
متيم: دليل . يقال: تامته المرأة أو العشق والحب تيما ويتمته: عبّده وذلّته
(القاموس) .

(٣) تسلب: تختلس ، أو تأخذ خلسة . تصلم: تستأصل قطعاً .

(٤) تراعي: تحسن ، وراعيته: لاحظته محسناً إليه .

(٥) رواه أحمد: ١٨٣/٥ ، وابن ماجه: ٤١٠٥ ، وغيرهما . قال البوصيري في الزوائد:
إسناده صحيح . [والحديث صحيح ، يراجع السلسلة الصحيحة ، ٩٥٠ ، المجلة] .

فهذه الدنيا من جعلها همه لازمه الهم طوال حياته ، ومن تركها وأشغل نفسه بالآخرة ، آتته الدنيا رغم أنفها ؛ فهي كما قال المصنف: ترعى وتكرم من عاداها ، وتذل وتهين من كان من أحبابها .

١٢٦ وَذَلِكَ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ قَدْرَهَا

جَنَاحُ بَعُوضٍ أَوْ أَدَقُّ وَالْأَمُّ^(١)

إن فعل الدنيا بالناس - كما مر بنا - دليل واضح بين على أن قدرها هو تركها ، والزهد فيها ، وعدم تعظيمها والاهتمام بها ؛ لأنها حقيرة لا تساوي شيئاً ؛ عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء)^(٢) .

١٢٧ وَحَسْبُكَ مَا قَالَ الرَّسُولُ مُمَثَّلًا

لَهَا وَلِدَارِ الْخَلْدِ وَالْحَقُّ يُفْهَمُ^(٣)

١٢٨ كَمَا يُدْلِي الْإِنْسَانُ فِي الْيَمِّ إِصْبَعًا

وَيَنْزِعُهَا مِنْهُ فَمَا ذَلِكَ يَغْنَمُ^(٤)

يكفيك تمثيلاً للدنيا وحقارتها أمام الآخرة ما قاله الرسول ﷺ مفاضلاً بينهما وممثلاً لهما ؛ كما روى المستورد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه) وأشار يحيى بالسبابة (في اليم فلينظر بم يرجع)^(٥) .

(١) برهان: حجة . قدر الشيء: مبلغه . أدق: أقل ، يقال أخذ جله ودقه: أي كثره وقليله . الأم: أظهر خصال اللؤم (لسان العرب) .

(٢) رواه الترمذي: ٢٣٢٠ ، ٥٦٠/٤ . انظر السلسلة الصحيحة للالباني: ٩٤٣ .

(٣) حسبك: يكفيك . دار الخلد: الجنة .

(٤) يدلي: دلا الدلو: نزعها ، وأدلاها: أرسلها في البئر . اليم: البحر . ينزعها: يخرجها . يغنم: يفوز ويظفر .

(٥) رواه مسلم: ٢٨٥٨ ، والترمذي: ٢٣٢٣ ، وابن ماجه: ٤١٠٨ ، وأحمد .

قال النووي^(١) : ومعنى الحديث: ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة - في قصر مدتها وفناء لذاتها ، ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها - إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر .

١٢٩ أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً

عَلَى حَذَرٍ مِنْهَا وَأَمْرِي مُبْرَمٌ^(٢)

يتمنى أن تمر عليه ليلة واحدة وهو آمن من تقلبات الدنيا ، ويكون حاله فيها محكماً مستقراً لا يخاف أن ينفطر عليه أمره .

١٣٠ وَهَلْ أُرِدَنَّ مَاءَ الْحَيَاةِ وَأُرْتَوِي

عَلَى ظَمًا مِنْ حَوْضِهِ وَهُوَ مُفْعَمٌ^(٣)

(ماء الحياة) : هذه العبارة لها أكثر من معنى ؛ منها: الوحي الذي أنزله الله سبحانه على نبيه ﷺ ؛ لأنه حياة القلوب والأرواح ؛ فيكون المعنى: إنه يريد أن يتزود من العلم ويكثر منه ، لأن الوحي ممتلئ بحكمة وعلماً ؛ وبهذا يكون الضمير في حوضه عائداً على الوحي .

ومنها: الدار الآخرة ؛ لقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾^(٤) ؛ فيتمنى أن يكون من السعداء يوم القيامة ، ويعيش الحياة الحقيقية ، ويتزود من الأحواض التي في الجنة ويرتوي منها .

ومنها: الماء الذي يكون في حوض النبي ﷺ الذي وصفه لهم . حيث يشتد العطش بالناس ثم ينعم الله على من يشاء من هذه الأمة فيشرب من الحوض ؛ ومن شرب منه فإنه لا يظمأ أبداً .

(١) في شرح مسلم: ١٧ / ١٩٢ .

(٢) ليت شعري: ليتني أعلم . مبرم: أبرم الأمر وبرمه: أحكمه .

(٣) أردن: نون التوكيد الخفيفة دخلت على الفعل المضارع (أرد) ومعناه: أبلغ . مفعم: ممتلئ .

(٤) سورة العنكبوت: ٦٤ .

١٣١ وَهَلْ تَبْدُونَ أَعْلَامُهَا بَعْدَمَا سَفَتْ

عَلَى رُبْعَهَا تِلْكَ السَّوَافِي فَتُعْلَمُ^(١)

الديار التي هبت عليها الرياح المحملة بالغبار والأتربة فطمست معالمها . هل ستزول الأتربة بعد ذلك وتظهر المعالم من جديد ؟

وربما يريد المصنف ، رحمه الله تعالى ، أن يقول: إن السنة الخالصة ، والاتباع الكامل لما جاء به النبي ﷺ ، والتجرد الحقيقي لاتباع نهجه ، قد هبت عليه رياح البدع والتقليد الأعمى لأشخاص بعينهم - وإن خالفوا الهدى الثابت بالأسانيد الصحيحة . يقول: فهل تزول هذه السوافي وتظهر معالم السنة ويرجع الناس إلى العمل بما صح عن نبيهم ﷺ ؟

١٣٢ وَهَلْ أفرِشْنَ خَدِي ثَرَى عَتَبَاتِهِمْ

خُضُوعاً لَهُمْ كَيْمَا يَرِثُوا وَيَرَحْمُوا^(٢)

وهل يتمكن من وضع خده على تراب عتبات الله سبحانه ، في خضوع وتذلل ، لعله ينال رحمة الله وعطفه ؟

١٣٣ وَهَلْ أَرْمِينَ نَفْسِي طَرِيحاً بِيَابِهِمْ

وَطَيْرٌ مَنَايَا الْحُبِّ فَوْقِي تُحَوِّمُ^(٣)

وهل أتمكن من أن ألقى بنفسي بياضهم ؟ أما حبي العظيم فيكم ، وشدة الشوق إليكم ، ربما يكون سبباً في هلاكتي .

(١) تبدون: بدا بَدُوا وَيُدَوُّ: ظهر . سفت: سفت الريح التراب: ذرته أو حملته . الريح: الدار بعينها ، حيث كانت ، والمحلة والمنزل (القاموس) .

(٢) أفرشن: فرش الشيء يفرشه: بسطه . ثرى: تراب: . خضوعاً: تواضعاً . كَيْمَا: لفظ مركب من (كي) الجارة التعليلية و(ما) . يرقوا: الرقيق ضد الغليظ .

(٣) طريحاً: طرح الشيء: رماه . منايا: جمع منية وهي الموت . تحوم: حام الطير على الشيء حوماً وحوماناً: دَوَّمَ (القاموس) .

١٣٤ فَيَا أَسْفَى تَفَنَّى الْحَيَاةُ وَتَنْقُضِي

وَذَا الْعَتَبُ بَاقٍ مَا بَقِيْتُمْ وَعَشْتُمْ^(١)

يتأسف على انقضاء الحياة وذهابها ، وهو ما يزال يجد اللوم والعتاب ؛ لأنه مولع بحب ربه ، وقد ألزم نفسه بطاعته وعدم مخالفة أمره ؛ فهو لا يسلم من عتاب المخالفين .

١٣٥ فَمَا مِنْكُمْ بَدٌّ وَلَا عَنْكُمْ غَنَى

وَمَا لِي مِنْ صَبْرٍ فَأَسْأَلُوا عَنْكُمْ^(٢)

إن قلبي قد تعلق بكم ؛ فلا حب لي إلا أنتم . فلا محالة إنني باق على هذا ، ولا أستطيع أن أستغني بغيركم ، ولا أن أصبر عنكم ، ولا أنساكم أبداً .

١٣٦ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَغْضَبْ سِوَاكُمْ فَلَا أَدَى

إِذَا كُنْتُمْ عَنْ عَبْدِكُمْ قَدْ رَضِيْتُمْ^(٣)

يا رب إن كنت قد رضيت عني فلا عليّ بعد ذلك ؛ فإن الخلق بأسرهم لو غضبوا لم أكثرث لغضبهم ، لأن الأصل عندي هو رضاك .

١٣٧ وَعَقْبِي اصْطَبَارِي فِي هَوَاكُمُ حَمِيدَةٌ

وَلَكِنَّهَا عَنْكُمْ عِقَابٌ وَمَائِمٌ^(٤)

إن عاقبة شدة صبري ، وتحمل آلام شوقي في حبكم ، نهايته التوصل

(١) العتب: اللوم .

(٢) بد: لا فراق أو لا عوض أو لا محالة . أسلو: أنسى .

(٣) أذى: مكروه .

(٤) عقبي: جزاء الأمور .

اصطباري: يقال صبر من خصمه واصطبر: أي اقتصر منه (نهاية) ، أو شدة الصبر . قال في القاموس: صبر يصبر فهو صابر وتصبر واصطبر .

إلى رضاكم ؛ فهي محمودة ، وأكرم بها من نهاية ؛ لأنكم سوف تجزونني أحسن الجزاء . أما الذي يصبر عنكم ويتحمل الأذى بمخالفة أمركم ، ويتعب نفسه بالسعي وراء المنكرات وفعل المحرمات ؛ فإنه سوف يجني لنفسه الآثام، وينال أشد العذاب . قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ﴾^(١) .

١٣٨ وَمَا أَنَا بِالشَّاكِي لِمَا تَرْضُونَهُ

ولكنني أرضى به وأسلم^(٢)

١٣٩ وَحَسْبِي انْتِسَابِي مَنْ بَعِيدٍ إِلَيْكُمْ

ألا إنه حظ عظيم مفخم^(٣)

١٤٠ إِذَا قِيلَ هَذَا عَبْدُهُمْ وَمُحِبُّهُمْ

تهلل بشراً وجهه يتبسم^(٤)

أنا لست من الذين يتشكون من أمور التشريع التي أنتم تحبونها وفرضتموها على عبيدكم ، ولكنني في غاية السعادة وكمال الرضا بفعل كل ما يرضيكم ؛ فأنا أفعله وأسلم أمري إليكم . ويكفيني فخراً وعزة أن أنتسب - ولو من بعيد - إليكم فيقال عني: عبدالله، فهذه النسبة هي عندي عظمة الشأن عالية القدر، وإذا ما سمعتها أسرُّ بها كثيراً، وتبدو آثار الفرح واضحة على وجهي .

١٤١ وَهَا هُوَ قَدْ أَبَدَى الضَّرَاعَةَ سَائِلًا

لكم بلسان الحال والقال معلّم^(٥)

(١) سورة العاشية: ٢ - ٤ .

(٢) الشاكي : شكا فلاناً : أخبر بإساءته إليه .

(٣) حسبي : يكفيني . الحظ : النصيب .

مفخم : التفخيم : التعظيم ، وفخم : عظيم .

(٤) تهلل : تهلل الوجه : تلالاً .

(٥) أبدى : أظهر . الضراعة : الذل والخضوع .

لسان الحال : هيئته وأفعاله . لسان القال : ما يصدر منه من أقوال .

١٤٢ أَحَبَّتُهُ عَطْفًا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ

لمظم وَإِنَّ الْمَوْرَدَ الْعَذْبَ أَنْتُمْ^(١)

هذا العبد المحب قد أظهر لكم فقره وشدة حاجته إليكم ، فهو يرفع إليكم ذله وخضوعه ، ويطلب إليكم بلسان حاله ؛ فإن حركاته وسكناته تعبر لكم عن مدى حبه لكم والتصاقه بكم ؛ ودليل ذلك أن قوله يصدق فعله . هذا إذا كان ضبط الكلمة (معلم) بكسر اللام . أما إذا كان بفتح اللام (معلم) فيكون المعنى: إن هذا فعله ، أما قوله فقد عرفه الجميع فلا يخفى على أحد .
فها هو يناجي ربه سبحانه وتعالى ويطلب إليه أن يعطف عليه ؛ لأنه في عطش شديد ؛ فلا يرويه ويُذهب عنه غليله إلا أنتم ، فهو سعيد بقربكم ، ويستوحش بفراقكم والبعد عنكم .

١٤٣ يَا سَاهِيًا فِي غَمْرَةِ الْجَهْلِ وَالْهَوَى

صَرِيحَ الْأَمَانِيِّ عَنِ قَرِيبٍ سَتَّئِدُمْ^(٢)

١٤٤ أَفَقُّ قَدْ دَنَا الْوَقْتُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ

سَوَى جَنَّةٍ أَوْ حَرِّ نَارٍ تَضَّرَمُّ^(٣)

يا من غلب عليه هواه وهو ساهٍ يتخبط في جهل عميق ، وكل بضاعته هي التمنى على الله من غير أن يبذل أي عمل في تحقيقها ، فإن العمر قصير ، وسوف تعلم بعد ذلك أين أنت وماذا كنت تعمل .

ثم : ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه ﴾^(٤) لا ينفع الندم يومئذ ؛ ﴿ يقول

(١) لمظم: رجل مظماء يعنى معطاش .

(٢) ساهياً: غافلاً ، والسهوى: الغفلة . غمرة: شدة .

صريح: صرعه صرعاً: الفقاء على الأرض . والمعنى: إن الأمانى غلبته فلا يستطيع مقاومتها . والأمانى: جمع أمنية ، وهي البغية .

(٣) أفق: ارجع إلى صوابك . أفاق: إذا رجع إلى ما كان قد شغل عنه ، وعاد إلى نفسه . تضرم: تشتعل .

(٤) سورة الفرقان: ٢٧ .

يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴿١﴾ .

فإن هذا الساهي الذي طالت غفلته ، يقول له المصنف: ألم يأن لك أن ترجع إلى صوابك وتنتبه إلى نفسك ؟ ألم تخش أن يفاجئك الموت في أي ساعة من أيام عمرك ؟ فمهما طال فإن له نهاية ، وأنت لا تعلمها ، فإذا حان وقتها وانتقلت من هذه الدار إلى دار القرار ؛ فإما الجنة وإما النار .

إما أن تكون ممن دخل في رحمة الله ورضوانه ، فهو قرير العين في جنات ونهر ، وإما الأخرى فهي نار مؤصدة .

١٤٥ وبالسنّة الغراء كُنْ مُتَمَسِّكاً

هِيَ الْعُرْوَةُ الْوَثْقَى الَّتِي لَيْسَ تَنْفَصِمُ^(٢)

١٤٦ تَمَسِّكْ بِهَا مَسْكَ الْبَخِيلِ بِمَالِهِ

وَعَضَّ عَلَيْهَا بِالنَّوْاجِذِ تَسْلِمُ^(٣)

بالسنة البيضاء الصافية النقية ، كن متمسكاً تمسكاً شديداً ؛ لأنها هي التي تنجيك من السقوط في الهاوية ؛ لأنها العروة الوثقى التي لا تنفصم .

فالذي يعمل بما دلت عليه السنة ، ولا يجيد عنها ، فإنه على الصراط المستقيم ، وإنه متمسك بالأسباب القوية التي قد أحكمت من لدن حكيم خبير ، فهي محكمة ، ولا يخاف أن تنقطع به . أما العروة الوثقى ؛ فقيل هي: (لا إله إلا الله) ؛ وقيل هي: القرآن ؛ وقيل هي: كلمة الإخلاص ؛ وقيل: (أبو بكر وعمر) ؛ وقيل: إذا وحد الله وآمن بالقدر ، فهي العروة الوثقى^(٤) .

وعن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال: رأيت رؤيا على عهد رسول

(١) سورة الفرقان: ٢٧ .

(٢) الغراء: البيضاء . متمسكاً: معتصماً . تنفصم: تنكسر .

(٣) عض عليها بالنواجذ: أي تمسك بها كما يتمسك العاض بجميع أضراره (النهاية) .

(٤) ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور: ٥٨٤/١ .

الله ﷺ ، رأيت كأنني في روضة خضراء وسطها عمود من حديد ، أسفله في الأرض وأعله في السماء ، في أعلاه عروة ؛ فقبل لي: ارقه . فرقيت حتى كنت في أعلى العمود ، فأخذت بالعروة ، فقبل لي: استمسك ، فاستيقظت وإنها لفي يدي ، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: (تلك الروضة الإسلام ، وذلك العمود عمود الإسلام ، وتلك العروة عروة الوثقى، وأنت على الإسلام حتى تموت) (١) .

فالعروة الوثقى هي الإسلام كله ، فمن تمسك بكل ما جاء به النبي ﷺ فهو المتمسك الذي لا يخاف على نفسه السقوط .

أما قوله: (تمسك بها مسك البخيل) ؛ فإنه يوصي أن تتمسك بالسنة ولا تفارقها في جميع شؤونك ، لأن البخيل لا تسمح له نفسه أن يفرط بشيء من ماله، ولو كان يسيراً، وإنما همه الأعظم أن يضيف إليه حتى يزداد.

وقوله: (وعض عليها) ؛ إذا أردت السلامة والنجاة والفوز في الدنيا والآخرة ، فما عليك إلا أن تتمسك بالسنة ، وكأنك تعض عليها بأسنانك الداخلية زيادة في التمسك . وفيه إشارة إلى حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه وفيه: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ...) (٢) الحديث .

١٤٧ وَدَعَّ عَنكَ مَا قَدْ أَخَذَتْ النَّاسُ بَعْدَهَا

فَمَرَّتْ هَاتِيكَ الْحَوَاثِ أَوْخَمٌ (٣)

(١) رواه البخاري: ٣٨١٣ ، ومسلم: ٢٤٨٤ .

(٢) رواه أحمد: ١٢٦/٤ ، وأبو داود: ٤٦٠٧ ، والترمذي: ٢٦٧٦ ، وابن ماجه: ٤٢ .
[والحديث صحيح يراجع « الإرواء » ٢٤٥٥ ، المجلة]

(٣) مرتع: موضع الرتع ، ورتعاً: أكل وشرب ما شاء في خصب وسعة .
أوخم: كثير الوخم ، والوخم: الوباء (القاموس) .
قال في النهاية: وَخَمَ الطعام ، إذا ثقل فلم يستمر فهو وخيم ، وقد تكون الوخامة في المعاني . يقال: هذا الأمر وخيم العاقبة: أي ثقيل رديء .

يشير إلى حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)^(١).

وكذلك حديث العرياض الذي تقدم قبل هذا وفي آخره: (وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة) .

اترك جميع هذه البدع ، فإن مصادرها ومواقعها رديئة العاقبة لا خير فيها .

١٤٨ وهَيَّ جَوَاباً عِنْدَمَا تَسْمَعُ التَّدَا

مَنْ اللَّهُ يَوْمَ الْعَرْصِ مَاذَا أَجَبْتُمْ

١٤٩ بِهِ رُسُلِي لَمَّا أَتَوْكُمْ فَمَنْ يَكُنْ

أَجَابَ سِوَاهُمْ سَوْفَ يَخْزَى وَيَنْدَمُ^(٢)

يشير إلى قول الله سبحانه: ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾^(٣)؛ عندما يسأل الله تبارك وتعالى العباد هذا السؤال يريد منهم جواباً . فهل أعددت له جواباً ؟ فلا شك في أن من اتبع رسوله سيكون جوابه حاضراً ، ويستطيع أن يجيب عن نفسه بأنه آمن وصدق واتبع . وأما من كذب وتولى ؛ فما جوابه ؟ وما حجته ؟ بل لو أراد أن يعد جواباً ما استطاع ؛ لأن الله سبحانه يقول: (فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون)^(٤) ؛ لا يستطيع أن يدلي بحجة ، فما له إلا السكوت ، فعندها سوف يجابون عنهم غيرهم ، ومن كانت هذه حاله فلا شك في أنه من الهالكين .

نسال الله السلامة . وهذا هو قول المصنف: (فمن يكن أجاب سواهم)

(١) رواه البخاري: ٢٦٩٧ ، ٣٠١/٥ ، ومسلم: ١٧١٨ .

(٢) يخزي: يذل ويهان .

(٣) سورة القصص: ٦٥ .

(٤) سورة القصص: ٦٦ .